

الإنسان والحياة العملية عند سبينوزا

أ.م.د. زياد كمال مصطفى *

تاريخ القبول: ٢٠٢٠/٨/٢٢

تاريخ التقديم: ٢٠٢٠/٧/١٠

الكلمات المفتاحية: الانسان ، الرغبة ، الطبيعة ، الحياة ، العملية ، السعادة

القصوى

المستخلص:

لا تتفصل ماهية الإنسان عند سبينوزا عن انثروبوجيا الحياة الاجتماعية في فلسفته ، ولا عن مراتب المعرفة الممكنة لديه ، فحياتنا العملية تابعة لحياتنا العقلية . لكن الإنسان ذاته حال من أحوال "الله" أو الطبيعة بما هي كل ، وتحكمه في الحياة عناصر انفعالية أبرزها (الرغبة) كتعبير مباشر عن ميل الإنسان إلى حفظ وجوده كونه واعياً بهذا الميل ، لذا كان لا بد من سعي الإنسان إلى التغلب على انفعالاته كي يؤدي ذلك إلى تأكيد المعاني الاجتماعية في نفسه ، ذلك هو أساس الفضيلة . فالسعادة الحقّة التي هي الغرض المنشود لحياة الإنسان العملية لا تكمن في لذة الجسم والميل لحفظ البقاء وحسب ، بل في فعل الخير . ذلك أن "الكوناتوس" المرتبط بهذا الميل ، يمثل قوة الوجود المعبرة بالضرورة داخل كل الكائنات الفردية عن قدرة "الله" اللانهاية . فإذا كانت حكمة الإنسان الحر هي تأمل لا في الموت وإنما في الحياة ، فإن الخلاص لن يتم إلا لمن يطبقون هذه القاعدة في الحياة : أي لمن يطيعون "الله" ، على حين يهلك من يعيشون تحت سيطرة الذات "ومن تخيل هلاك ما يكره كان مسروراً" . ذلك هو حال الإنسان السبينوزي ، وتلك هي طبيعة الحياة العملية الخيرة التي ينبغي عليه أن يعيشها .

مشكلة البحث :

تدور مشكلة البحث حول وجود تناقضات في شرح سبينوزا لماهية الإنسان وبيان مفهومه ، والفيلسوف يصف تارة الحياة العاطفية والشعورية بأنها الأولى ، وأن عليها

* قسم الفلسفة/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

تتأسس الحياة العقلية كتصور واضح متميز للذات والعالم وكتأمل . وفي مواضع أخرى نجد في وصفه لذات العلاقة تأكيداً لتبعية حياتنا العملية لحياتنا العقلية ، ما يمهد تمهيداً صريحاً لمثالية مطلقة هيكلية تفضي في كنه معطياتها إلى اخضاع الواقع لمنطق الفكر ، وما يجعل الحياة العقلية فوق حياة الوجدان . فالفلسفة العملية "الأخلاقية" عند سبينوزا لا تتفصل عن العقلانية ولا عن موضوعات الميتافيزيقيا ، فضلاً عن أن الإنسان السبينوزي محكوم بجملة عوامل تقيد من تحديد ماهيته في الحياة العملية من بينها (الجبرية ، والطبيعية ، والرغبة ، والانفعالات) ، فضلاً عن سعي الإنسان في حفظ بقائه من جهة ، والسعي للفضيلة لكسب السعادة من جهة ثانية . فهذه الاشكاليات وغيرها هي ما سيتركز عليها موضوع البحث .

البحث (أهميته ومنهجه) :

يتتبع البحث الإنسان في مفهومه ، وبيان رغباته وانفعالاته وصلته بالطبيعة (الطابعة والمطبوعة) ، وصولاً إلى الطبيعة العملية للحياة الخيرة "الفاضلة" والذي يعد رابطاً وشيخاً ما بين محكومة الإنسان في هذا العالم وتحرره في الخلاص الحقيقي المنشود ، والمتمثل بخلاص الإنسان المطيع حقاً . ونسعى فيه إلى تقديم رؤية منهجية عن أجزاء من مشروع كبير جاء تحت مُسمى "علم الأخلاق" ، ذلك المشروع الذي أسسه سبينوزا على "رسالة موجزة في السعادة ١٦٦٠" سبقت كتابه المذكور ، وعلى أسس هندسية تأمل في تطبيقها على جوانب فلسفة عملية عنوانها الإنسان. هذا التدرج في المنهج والفلسفة ، والذي يشكّل وحدة المشروع السبينوزي ، هو ما حدا بنا إلى اتباع منهج " التحليل الفلسفي" لتتبع هذا التطور في اقترانه وتناقضه على حدٍ سواء .

حدود البحث وهدفه :

تتركز محاور البحث أو محركاته الأساس على المعطيات التالية ضمن فلسفة سبينوزا : (من المعرفة إلى الأخلاق ، ماهية الإنسان الأخلاقي ، الرغبة والانفعال ، الحياة العملية والسعي الى الفوز بالسعادة المقترنة بالفضيلة). إذ تهدف هذه المعطيات إلى تكوين رؤية قيمية أخلاقية لمفهومي الإنسان والحياة العملية عند الفيلسوف ، وهي تتحو نحو ايجاد تحديد يتفق مع سياق عقلانية هذه الفلسفة ، معتمدين في ذلك على

نصوص سبينوزا ، وما قدمه الشراح بصدددها ، محاولين الاسهام باضافة جديدة إلى ما جاء به الباحثين في ميدان الدراسات حول الفلسفة الأخلاقية أو العملية عند الفيلسوف .

تمهيد : سبينوزا^(١) والمشروع الأخلاقي **Spinoza and the ethics project**

يقول رسل : " سبينوزا هو أنبل وأحب الفلاسفة الكبار ... وكنتيجة طبيعية اعتبر ، أثناء حياته ، وإلى قرن من الزمان بعد مماته شراً مروعاً ! "^(٢). فحينما بلغ سبينوزا الثالثة والعشرين من عمره أظهر معارضة شديدة لمعتقدات اليهود وطقوسهم الدينية ، وقد بذل المجتمع اليهودي جهوداً كبيرة في استرضاء سبينوزا بالمال لكي لا يفصح عن آرائه المعارضة للدين . ولكن عبثاً ذهبت تلك الجهود ولذلك قرر المجتمع حرمانه من الكنيس واعتباره زنديقاً . ولما بلغ العداة لسبينوزا حداً أخذ يهدد حياته بالخطر اضطر الى مغادرة امستردام إلى لاهاي The wague وعاش بقية حياته فيها حتى توفي في العام المذكور^(٣).

يتم عرض مذهب سبينوزا بتلخيص ثلاثة من كتبه ، وهي : رسالة في اصلاح العقل (١٦٦١) ، والأخلاق (١٦٧٧) ، والرسالة اللاهوتية السياسية (١٦٧٠). وأصحها كتاب

١. باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) ، ولد عام ١٩٣٢ في امستردام من عائلة يهودية كانت قد هاجرت من اسبانيا إلى هولندا هرباً من الاضطهاد الديني وقد درس في التلمود والتوراة وبعض الفلاسفة اليهود مثل موسى بن ميمون وغيره . وتوفي في لاهاي التي هاجر اليها عام ١٦٧٧ . أيد سبينوزا الفلسفة الديكارتية واشتهر بالمنهج الهندسي في نطاق الفلسفة العقلانية والقول بمفهوم الجوهر ومفهوم الفكرة الوافية ، وطبق مراتب المعرفة على فلسفته الأخلاقية . من أبرز مؤلفاته : الأخلاق Ethics ، رسالة سياسية Tractatus Politicus ، ورسالة لاهوتية سياسية Tractatus Theologico Politicus ، والأفكار الميتافيزيقية Metaphysical Thoughts ، وبحث في اصلاح العقل Improvement understanding ، ومبادئ فلسفة ديكارت Principles of Descartes ، ورسالة قصيرة في "الله" وفي الإنسان وسعادته . Man , and his Well – Being , Philosophy Short Treatise on "God"

٢. رسل ، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ؛ مجلد ٣ ، ترجمة : محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بلا ط ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٠ .

٣. متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي ؛ منشورات جامعة بنغازي ، كلية الآداب ، ١٩٧٤ ، ص

الأخلاق ، فإنه جامع يلخص الكتب المذكورة ويكملها (١). وقد نهج سبينوزا في مؤلفه الأخلاق المنهج الهندسي (٢) وهو المنهج اللائق بمذهبه (٣) الذي ينزل من الواحد الى الكثير، إذ يقول في هذا الكتاب: "سيبدو بالتأكيد غريباً أن أشرح في بحث عيوب الناس وعاهاتهم على طريقة علماء الهندسة ، وأن أرغب في البرهنة بدقيق الاستدلال على ما لم ينفكوا يعلنون عن مناقضته للعقل وبطلانه وخلفه وفضاعته" (٤). ففي فكر سبينوزا ، الحياة ليست مجرد فكرة ، أو مسألة نظرية ، إنما هي (طريقة للوجود). ومن هذا المنظور يمكن فهم الطريقة الهندسية في مجال الأخلاق ، والتي بفضلها لم تعد الأخلاق متمثلة لا بالطابع التأملي فحسب ، بل الطابع العملي كذلك (٥).

فالإجماع حاصل تقريباً على أن كتاب "علم الأخلاق" هو تحقيق للمشروع الذي خطه سبينوزا في (رسالة في اصلاح العقل) (٦). كذلك يعد مؤلفه الموسوم بـ(الرسالة الموجزة في "الله" وفي الإنسان وسعادته والتي أعدها ما بين ١٦٥٠-١٦٦٠) ، بمثابة المسودة لكتاب علم الأخلاق (٧) ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على وحدة المشروع السبينوزي .

١. عويضة ، كامل محمد محمد ، باروخ سبينوزا " فيلسوف المنطق الجديد " ، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٣ ، ص ١٠٩ .
٢. وفقاً لقول سبينوزا " سأنظر إلى الأفعال والشهوات الإنسانية كما لو كان الأمر يتعلق بخطوط وسطوح وجوامد " (سبينوزا ، باروخ ، علم الأخلاق ؛ ترجمة : د. جلال الدين سعيد ، مراجعة. جورج كتورة ، المنظمة العربية للترجمة _ مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ١ ، ٢٠٠٩ ، ص ١٤٧).
٣. أي مذهب وحدة الوجود .
٤. سبينوزا ، علم الأخلاق ، ص ١٤٦ .

5 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; Translated by: Robert Hurley , City Lights Books , San Francisco , First edition in English , 1988 , p 13 .

٦. سبينوزا ، باروخ ، رسالة في اصلاح العقل (لزوميات المقال) ؛ ترجمة : جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر - تونس ، بلا ط ، ١٩٩٠ ، (ضمن التقديم) ، ص ١٦ .
٧. سبينوزا : المصدر السابق ، هامش ص ١٣ .

فمنذ " الرسالة في اصلاح العقل " ، عبر سبينوزا ، إلى جانب رغبته في تقديم منهج للبحث عن الحقيقة ، عن طموحه لتأسيس مشروع الأخلاقي ، فكان منطلقه بالسؤال عن حقيقة الخير الذي يكون خيراً حقيقياً قابلاً للتوصيل تزهد النفس فيما عداه ولا تتأثر بسواه ، حيث يجعلها اكتشاف هذا الخير وامتلاكه مبتهجة دائماً أعظم ابتهاج^(١) . وإذا كان الأخلاق هو موضوع المقاليتين الأخيرتين من كتاب سبينوزا في "علم الأخلاق" ، إلا أنه أطلق أسم الأخلاق على الكتاب كله (لأن غاية النظر عنده العمل)، ولأن اتجاهه الأساسي أخلاقي كما هو الحال عند الرواقية^(٢) في الفلسفة اليونانية^(٣) ، ولعل هذا ما دعا دعا رسل إلى القول " لقد تخطى بعضهم -سبينوزا- في الجانب العقلي، لكنه أعلاهم في الجانب الأخلاقي"^(٤).

ففي نظر سبينوزا يتعذر قيام "علم بالإنسان" بغير تحليل مبدئي تنظيمي لجملة سلوك الإنسان العيني الذي يبدو في ظاهره فوضوياً ، مع انه يخضع في الواقع لحتمية صارمة . إن سبينوزا يرمي عرض الحائط بكل دراسة للطبيعة الإنسانية تقوم على أحكام أخلاقية مسبقة ، ويرفض تقييم سلوك الإنسان قياساً على سلم قيمي أصيل نزعة متعالية أو نزعة دغمائية لاهوتية تؤكدان بشدة على فساد الطبيعة الإنسانية جراء الخطيئة الأولى^(٥). ويشير سبينوزا إلى أنه كي يتسنى لنا تحقيق الغاية التي نسعى إلى توجيه جميع أفكارنا نحوها ، ولكي نتعرف على أفضل إدراك يسمح لنا بتحقيق كمالنا ، وعلى أول سبيل

١. جلال الدين سعيد : سبينوزا والكتاب المقدس ، ص ١٠٨-١٠٩ .

٢. الرواقية مدرسة للفلسفة الهلنستية أسسها زينون سيتوم اليوناني من أصل فينيقي أوائل القرن الثالث قبل الميلاد في رواق بوكيلي ، ومن هنا جاءت تسميتها نسبة إلى المكان . والرواقية هي في أساسها مذهب في فلسفة الأخلاق تسترشد مع هذا بمنطق يعد نظرية في المنهج وتقوم على الطبيعة = الفيزيقا كأساس لها. (ستيس ، وولتر ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة ، بلا ط ، ١٩٨٤ ، ص ٢٧٩) .

٣. كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة ؛ دار العالم العربي - القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١ ، ص ١٠٩ .

٤. برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

٥. الشامخ ، فاطمة حداد ، الفلسفة النسقية ونسق الفلسفة السياسية عند سبينوزا ؛ ترجمة : جلال الدين سعيد ، مراجعة. صالح مصباح ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع - لبنان بيروت ، وزارة الشؤون الثقافية معهد تونس للترجمة ، ط ٢ ، ٢٠١٧ ، ص ٦٩ .

ينبغي أن يسلكه الفكر الحر حتى يكون منطلقه سليماً " فالمطلوب من المنهج أولاً: أن يميز الفكرة الصحيحة عما سواها من الإدراكات ، وأن يحفظ الفكر من هذه الأخيرة ، ثانياً: أن يضبط القواعد التي تسمح ، وفقاً لهذا المعيار ، بادراك الأمور المجهولة ، ثالثاً: أن يؤسس نظاماً يجنبنا عناء البحث في الأمور التافهة ... ، رابعاً: إنه سيكون أكمل المناهج إذا ما حصلت لدينا فكرة الكائن الكامل ، وبالتالي فعلينا ، بادئ ذي بدء ، أن ندأب على بلوغ هذا الكائن بأسرع ما يمكن ^(١).

أما عن النور الفطري -الذي دعا إليه سبينوزا- في كتاباته الدينية فهو لم " يوضع موضع الاحتقار فحسب ، بل إنه كثيراً ما أُدين باعتباره مصدراً للكفر ! ، وأصبحت البدع الإنسانية تعاليم إلهية ، وظن الناس أن التصديق عن غفلة هو الإيمان ^(٢) ، وأثار الجدل داخل الكنيسة وفي الدولة انفعالات شديدة نتجت عنها أحقاد قاسية ومنازعات وفتن بين الناس بالاضافة إلى شرور أخرى كثيرة؟" ^(٣).

ولذلك يقول سبينوزا عن كتابه رسالة لاهوتية سياسية: " اني لا أدعوا العامة أو من يسرون على هوى انفعالاتهم الى قراءة هذا الكتاب . وإنه لأفضل لي أن يتجاهلوه تماماً ، من أن يؤولوه تأويلاً خاطئاً كعادتهم دائماً . ذلك لأنهم لن يستفيدوا منه ، بل سيجدون فيه وسيلة لابقاع الشر وللإساءة إلى بعض الفلاسفة الأحرار الذي لا يعتقدون بوجود وضع العقل في خدمة اللاهوت" ^(٤) .

والنهج العقلي ذاته نراه عند سبينوزا في المجال الأخلاقي (العملي) ، ذلك لأن الحد الفاصل بين البحث في الطبيعة والبحث في الإنسان يختفي تماماً لديه ، والدلالة الواضحة لبحثه موضوعات ميتافيزيقية رئيسة في كتابه "الأخلاق" هي أن سبينوزا قد أحدث تغييراً

١. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص ٤٠-٤١ .

٢. يقول سبينوزا في ذلك : " عقدت العزم على أن أعيد من جديد فحص الكتاب المقدس بلا ادعاء وبحرية ذهنية كاملة ، وألا أثبت شيئاً من تعاليمه أو أقبله ما لم أتمكن من استخلاصه بوضوح تام " (سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص ١١٤) .

٣. إسبينوزا ، باروخ ، رسالة في اللاهوت والسياسة ؛ ترجمة وتقديم : د. حسن حنفي ، مراجعة : د. فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٥ ، ص ١١٤ .

٤. سبينوزا : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

أساسياً في النظرة الفلسفية إلى مجال الأخلاق ، فهو يرفض تماماً تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية الخالصة ، وهو الميتافيزيقا ومجال المعرفة العملية^(١) وهو الأخلاق^(٢). وإن نظام الأخلاق الذي يدعو الناس إلى الضعف ويعلم الإنسان أن يكون ضعيفاً هو نظام لا قيمة له وغير جدير بالاهتمام في نظر سبينوزا^(٣). ذلك أن الخير الأخلاقي - عند سبينوزا - موسوم بنفعه للإنسان ، وتطوير قدرته على الفعل ، وتحقيق كينونته كإنسان^(٤).

فسبينوزا لا يقيم أخلاقه على محبة الآخرين وطبيعة الخير في الإنسان كغيره من المصلحين المثاليين ، ولا على الأنانية وطبيعة الشر في الإنسان كالمحافظين الكليبيين ، ولكنه يقيمها على ما يعتبرها أنانية لا مفر منها ولها ما يبررها^(٥). فأساس الفضيلة هي نوع من الأنانية المعتدلة التي تعين صاحبها على الاحتفاظ بوجوده ، وهو لا يرى في حب الشخص لنفسه أي ضرر يلحق بالآخرين^(٦). فإذا كانت فلسفة الحياة عن سبينوزا تقتضي الوقوف على مفهومي (الخير والشر) ، فإن ما يفسد الحياة بالفعل هو الكراهية^(٧).

وبحسب سبينوزا ، فإننا حالما نطرح الفرضية المجردة وغير القابلة للتحقيق بالتجربة ، فرضية حرية الإرادة ، يصبح تأمل الطبيعة الإنسانية متوقفاً على دراسة سلوك الإنسان

١. ان الحكمة السبينوزية هي على غرار الحكمة القديمة ، كل واحد لا ينفصل فيه الجانب المنهجي عن المبحث الانطولوجي ، ولا المبحث الانطولوجي عن الجانب الايثولوجي Ethologigie وعن الغائية (سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، -ضمن التقديم- ص ١٧) .

٢. زكريا ، فؤاد ، اسبينوزا ؛ مؤسسة هنداوي - القاهرة ، بلا ط ، ٢٠١٧ ، ص ٢٠٤ .

٣. ديوي ، جون ، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ترجمة : فتح الله محمد المشعشع ، شركة دار المعارف ، ناشرون - بيروت لبنان ، ط ٢ ، ٢٠١٧ ، ص ١٤١ .

٤. جلال الدين سعيد : سبينوزا والكتاب المقدس ، ص ١٠٨ .

٥. جون ديوي : المصدر السابق ، ص ١٤١ .

٦. محمود ، زكي نجيب ، م (فلسفة سبينوزا - ٢) ؛ مجلة الرسالة ، مجلة اسبوعية للأدب والعلوم والفنون - القاهرة ، رئيس التحرير : أحمد حسن الزيات ، العدد ١٥ السنة الأولى اغسطس ١٩٣٣ ، ص ٢٠ .

وتفسيره بفضل قوانين الطبيعة دونما تقييم أو اطلاق حكم أخلاقي عليه . فالمنهج الذي يريد أن يتوخاه سبينوزا في ملاحظة أفعال الإنسان وانفعالاته ينفر من كل موعظة أخلاقية^(١). فالإنسان عند سبينوزا حال متناه من أحوال الله "أو الطبيعة بما هي كل" ، ويقدر ما يزداد تفكيره وضوحاً وتمييزاً أي كفاية ، فإنه بذلك القدر يزداد كمالاً^(٢). وإذا كان الباحثين - قبل سبينوزا - قد ترددوا في أن يطبقوا على الإنسان نفس المبادئ التي تطبق على الطبيعة بوجه عام ، ونظروا إلى الإنسان على أنه "استثناء" من المجرى العام للطبيعة . وكان من نتيجة ذلك أن ظلت طبيعة الإنسان مجهولة لديهم على الدوام ، فإن سبينوزا لم يضع الانسان في مركز مميز يعلو فيه سلوكه على سائر الظواهر الطبيعية^(٣). الطبيعية^(٣). وهو يقول في ذلك : " إن معظم الذين كتبوا عن الانفعالات وعن سلوك الإنسان في الحياة يبدو كأنهم يعالجون اموراً خارجة عن الطبيعة ، لا اموراً تسير وفقاً للقوانين الطبيعية ، بل يبدو إنهم يتصورون الإنسان في الطبيعة كما لو كان دولة داخل دولة . وفعلاً إنهم يعتقدون أن الإنسان يخلّ بنظام الطبيعة أكثر مما ينساق له ، وإن له سلطاناً مطلقاً على أفعاله الخاصة ولا يخضع إلا لنفسه"^(٤).

فالهدف من علم الأخلاق السبينوزي ليس الوعظ والارشاد ، وإنما هو الدراسة والبحث والفهم ، لينقل بذلك الأخلاق من مجال (ما ينبغي أن يكون) إلى مجال (ما هو كائن) ، وليؤكد أن مهمته بوصفه باحثاً أخلاقياً ليست أن يحتقر أو ينتقد ، وإنما ليفهم الطبيعة البشرية على ما هي عليه^(٥). فإذا كان كتاب الأخلاق قد بدأ بالميتافيزيقا ، فإنه يمضي إلى سيكولوجيا الانفعالات والارادة ، ويضع أخلاقاً مؤسسة على ما تقدم من ميتافيزيقا وعلم نفس^(٦) ، وهو بذلك يهتم ، بكل ما في الكلمة من معنى ، بأن يبين كيف يمكن لنا

١. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٦٥ .

٢. كريم متى : الفلسفة الحديثة - عرض نقدي ، ص ١٢٤ .

٣. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢١٢ .

٤. المصدر السابق : ص ١٤٥ .

٥. فؤاد زكريا : المصدر السابق ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

٦. برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

أن نعيش في " نُبل " حتى عندما نتبين حدود القدرة الإنسانية^(١). وعلى حد تعبير جيل دولوز ، فإن علم الأخلاق كعلم للسلوك ، تتركز في وجهة نظر سبينوزا على الأفعال التي تتضمن المشاعر والعواطف في محدداتها الداخلية والخارجية معاً^(٢).

من هنا يماهي سبينوزا في كتابه الأخلاق بين "الكوناتوس" وبين النزوع إلى الاستمرار في الوجود ، إذ يستخدم هذا اللفظ للدلالة على نزوع الكائن بقدر ما له من الكيان إلى الاستمرار في كيانه^(٣) وعلى السعي إلى الإثبات المطلق الذي يكشف لدى الحال عن قوة وقدرة العلة الوحيدة التي تعلله^(٤). إذ " لا يعدو أن يكون الجهد (Conatus) الذي يبذله يبذله كل شيء من أجل الاستمرار في كيانه غير ماهية ذلك الشيء الفعلية"^(٥) و"لا شيء شيء ينفع الإنسان في حفظ وجوده والتمتع بحياة موافقة للعقل أكثر من الإنسان الذي يهتدي بالعقل ... فلما كنّا لا نعرف من بين الأشياء الفردية شيئاً أفضل من الإنسان الذي يقوده العقل ، فلا أحد يستطيع إذاً أن يبرهن على مهارته وكفائه بغير تدريب الناس على العيش تحت سيادة العقل بالذات"^(٦) إذ تكون أفعالنا ، أي "رغباتنا" تلك التي تحددها قدرة الإنسان أو عقله ، دائماً حسنة ، أما الرغبات الأخرى فقد تكون حسنة أو قبيحة^(٧). وبهذا وبهذا المعنى ، لا يوجد شر (في ذاته) ، ولكن هناك ما هو سيء بالنسبة لي^(٨).

١. المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١٣٣ .

2 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 27 .

٣. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ١٥٦

٤. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٣٦ .

٥. سبينوزا : المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

٦. المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .

٧. المصدر السابق : ص ٢٤٨ .

8 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 33 .

لذا ولكي يؤكد سبينوزا ذلك التماهي ما بين (الكوناتوس والرغبة)^(١) ، سيجعلهما مبدأ الحياة الذي يظل قائماً في كل الأحوال التي توجد ضمن نظام الطبيعة الكلي ، والذي يخضع لحتمية مزدوجة ، حتمية العلة الالهية وحتمية الأشياء الجزئية التي يعد الإله علتها الأولى ، التي تفعل وتتفعل مع بعضها لتحقيق ماهيتها^(٢). والإنسان (كَرغبة متمثلة بالكوناتوس) ، وإن لم يكن ذلك ظاهراً ، يميل في الواقع إلى المثابرة في الوجود ، وبما أن تلك المثابرة تتمثل في الصبر ، فإن هذه الرغبة في الإنسان لا تتطوي على مدة محددة^(٣). وذلك ما يدعونا للبدء في التعرف على ماهية الإنسان.

المبحث الأول / ماهية الإنسان Human essence

إن الإطار الذي يتناول فيه سبينوزا "ماهية الإنسان" ووجوده ورؤيته للوضع البشري عموماً ليس هو إطار الانثروبولوجيا فحسب ، بل هو كذلك الإطار السياسي ، إذ يتفرع مبحثه إلى ثلاث مستويات : الإنسان في الطبيعة الكلية وفي الطبيعة الشخصية ، والإنسان في المجتمع السياسي ، والإنسان في "المدنية" ، وتتجلى هذه المستويات في ثلاث نصوص : (الأخلاق ، والرسالة اللاهوتية السياسية ، والرسالة السياسية)^(٤). لكن بحثنا ستركز على مفهوم الإنسان في الأخلاق والحياة العملية ، ليكون هذا المفهوم ضمن ما عبر به سبينوزا بعلم الإنسان في كتابه الأخلاق في المستوى الأول بالنسبة لهذه الدراسة .

بدايةً يعرف سبينوزا الإنسان ، على غرار كل الأشياء الواقعية ، بوصفه حالاً متناهيًا من أحوال الله أو الطبيعة بما هي كل . إذ لا يوجد سوى جوهر واحد ، وهو غير متناه

١. بوصف الأولى نزوع وجهد في الاستمرار في الوجود ، والثانية لكونها ماهية الانسان . مع ملاحظة الفارق بينهما من أن (الكوناتوس) يهيم جميع الأشياء الفردية دون أن يقتصر على الانسان وحده ، في حين أن مفهوم (الرغبة) متعلق بالانسان فقط.

٢. مراوي ، بلال ، بحث (الرغبة والنسق الايثولوجي في فلسفة سبينوزا) ، مؤمنون بلا حدود ، قسم الفلسفة والعلوم الانسانية ، نوفمبر ٢٠١٦ ، ص ٩ .

3 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 98 – 99 .

٤. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٢٩-٣٠ .

اطلاقاً ، أي الله^(١). وليس الجوهر ما يؤلف صورة الانسان ، وأن ماهية الانسان هي شيء موجود في الله ، ولا يمكنها بدون الله أن توجد ، ولا أن تتصور ، فهي عرض أو حال متناه يعبر عن طبيعة الله بطريقة معينة ومحددة^(٢). ولا اختلاف بين الإنسان والأحوال الأخرى إلا في درجة التعقيد وهو لذلك يشغل مكاناً أرفع منها وتأتي بعده الحيوانات والنباتات وأخيراً ما يسمى بالكائنات الغير حية ، من هذا كان الجسم البشري أكمل من أجسام الكائنات الحية الأخرى ويحتوي على قدر من الواقع أكبر مما تحتويه هي منه ، وهذا معناه أن للانسان قوة أكبر مما للأشياء الجزئية الأخرى^(٣). ففوة الإنسان ، ويقدر ما يتم تفسيرها من خلال جوهرها الفعلي ، هي جزء من قوة الله أو الطبيعة اللا نهائية^٤.

والإنسان مركب من حال امتدادي هو جسمه ، ومن حال فكري هو نفسه . الجسم آلة مؤلفة من آلات ، والنفس فكرة الجسم ، أي فكرة موضوعها الجسم الموجود بالفعل ، فهي تبدأ وتنتهي مع الجسم ، وعلتها خارجة عنها تلتمس في أحوال أخرى من الفكر مقابلة لأحوال الامتداد التي هي علة الجسم^(٥). فالإنسان إذن حال متناه يتألف من عقل وجسم منظوراً إليه من خلال صفة الفكر مرة ومن خلال صفة الامتداد مرة أخرى^(٦). فجسم الانسان يتم التعبير عنه من خلال الامتداد ، وليس على النحو المعبر عنه من خلال أي سمة أخرى ، وذلك مما لا يتنافى مع صفة الفكر ، فالفكر وموضوعه هما ما يشكلان الفرد الواحد ، رغم اختلاف السمات فيما بينها ، فالإنسان حال متناه ، وهو يمثل "فكر" ، وامتداد "الجسم البشري"^(٧)، وعليه يغدو من الواضح إن ماهية الإنسان تتألف فقط من روح وجسم .

١ . سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٤٥ .

٢ . المصدر السابق ، ص ٩١ - ٩٢ .

٣ . كريم متي : الفلسفة الحديثة ، ص ١١٧ .

4 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 98 .

٥ . يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ١١٥ .

٦ . كريم متي : المصدر السابق ، ص ١١٧ .

7 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 89 .

فهذه حقيقة أزلية بل هذه أولية . فمن جهة كونه حالاً من أحوال الامتداد ، فإن الإنسان جزء من هذه السلسلة اللانهائية للأشياء المحددة ، ومن جهة كونه حالاً من أحوال الجوهر التابعة لصفة الفكر ، فإن الإنسان يفكر ، وإن التفكير خاصة ضرورية من خواص مفهوم تنتمي بصورة أزلية لماهيته وتعريفه. ان التفكير خاصة مشتركة بن كل الناس^(١). وهكذا يكون الإنسان خاضعاً للحتمية^(٢) من جهتين اثنتين ، (بوصفه جسماً وبوصفه فكراً) ، ويكون من كل جهة خاضعاً لحتمية مخصوصة . ولا يوجد أي خلط أو التباس في هذا التفسير الذي يقدمه سبينوزا ، الا أن الإنسان يمثل وحدة من تلك الوحدات التي يتألف منها الكون ، إنه وحدة مركبة ، وأن ما يوحدده هو نزوعه الى حفظ كيانه^(٣).

والإنسان كحال من أحوال "الله" أو الطبيعة بما هي كل ، ماهيته تتألف من أحوال معينة لصفات "الله" ، لأن وجود الجوهر لا يعود الى ماهية الإنسان ، إذن فالإنسان شيء موجود في "الله" ، وبدون "الله" يستحيل أن يوجد أو يتصور^(٤). وفي النظام الكلي للطبيعة للطبيعة ، يخضع الإنسان للعناصر الأخرى كما يخضع لأمثاله من البشر ، رغم انه يظل مختلفاً : ذلك لأنه يتجلى كجسد فردي وسط الاختلاف كما يثبت اختلافه هذا بما هو فكر^(٥).

هذه النظرة إلى الإنسان وانفعالاته على أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة ، تسري عليه نفس القوانين التي تسري عليها ، جعلت سبينوزا يعالج الانفعالات على أنها ظواهر طبيعية خالصة ، وينزع عنها كل ما كان يعزى اليها على يد الفلاسفة التقليديين من

١. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٥٤ .

٢. يقول سبينوزا : " أنا أعتبر حراً الشيء الذي هو موجود ويتحرك فقط بفعل ضرورة طبيعية ، وأسمي اكراهاً الشيء الذي هو محتوم ويحدد بشيء آخر في وجوده وفي حركته " (سبينوزا : مراسلة من سبينوزا الى شولر ، نقلاً عن ، سبيلا ، محمد و بنعبد العالي ، عبد السلام ، الفلسفة الحديثة " نصوص مختارة "؛ افريقيا الشرق - المغرب ، بلا ط ، ٢٠٠١ ، ص ٢٧٣).

٣. المصدر السابق : ص ٣٥ .

٤. ابراهيم مصطفى ابراهيم : الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم ، ص ٢٠٥ .

٥. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٤١ .

أسباب "استثنائية" متعلقة بمجال الإنسان وحده^(١). فهو يقول : " أعني بالفرح الانفعال الذي تنتقل به النفس الى كمال أعظم ، وبالحزن الانفعال الذي تنتقل به إلى كمال أقل . ثم اني اطلق انفعال الفرحة ، عندما يتعلق بالنفس والجسم معاً ، لفظ الدغدغة^(٢) ، أو البهجة ، وعلى انفعال الحزن لفظ الألم أو الكآبة"^(٣).

ذلك أن كون اللذة والألم "انتقالاً" هو الدليل على انهما انفعالان مرتبطان بافتقار الإنسان إلى الكمال ، إذ أن من طبيعة الإنسان أن يمر بأحوال مختلفة في درجة كمالها ، وفي عملية الانتقال ذاتها تكون اللذة أو يكون الألم^(٤) . ويضيف سبينوزا إلى انفعالي (اللذة والألم) انفعالاً ثالثاً هو "الرغبة" ، والذي هو التعبير المباشر عن ميل الإنسان إلى حفظ وجوده وعن كونه واعياً بهذا الميل ، فالرغبة^(٥) هي "عين ماهية الإنسان من حيث تصورها مدفوعة ، بموجب انفعال من انفعالاتها الذاتية إلى فعل شيء ما الصالحة لحفظها"^(٦). وعليه فكل عمل يؤدي إلى المحافظة على الإنسان ومن ثم منفعته - هو خير^(٧).

والحقيقة أن هذا الانفعال الأخير -أي الرغبة- يجرنا للحديث عن (الحرية) ، فسبينوزا يرى في الحرية أنها لا تتعارض مع الضرورة ، وإنما مع التحكم أو الإرغام الخارجي ، فالحرية هي الضرورة الباطنة ، أي أن الكائن يكون حراً إذا لم يكن يرغمه شيء خارج

١. فؤاد زكريا : اسبينوزا، ص ٢١٣ .

٢. يقول سبينوزا: " لا بد من الاشارة إلى أن الدغدغة والألم يتعلقان بالانسان عندما تتأثر بعض أجزائه أكثر من غيرها ، والبهجة والكآبة عندما تتأثر كل الأجزاء على حد سواء " (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ١٥٩) .

٣. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ١٥٩ .

٤. فؤاد زكريا : اسبينوزا، ص ٢١٤-٢١٥ .

٥. يرى سبينوزا انه "لا يوجد أي فرق بين الشهوة والرغبة ، عدا أن الرغبة تتعلق عموماً بالانسان من حيث انه يعي شهواته ، ولذلك يمكن تعريفها كما يلي : الرغبة هي الشهوة المصحوبة بوعي ذاتها" (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ١٥٨) .

٦. سبينوزا : المصدر السابق ، ص ٢١١ .

٧. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص ١١٨ .

عنه ، وإنما يكون سلوكه متفقاً مع الضرورة الباطنة لطبيعته فحسب^(١). ويقدر ما يكون الإنسان جزء لا إرادة له من كل أكبر ، فهو في عبودية ، ولكن بقدر ما يكتسب الإنسان من خلال الفهم الحقيقة الوحيدة لكل فهو حر^(٢).

فالحرية الإنسانية الحقيقية تتحقق في المعرفة العلمية الصحيحة ، ومن يقع تحت سلطان العبودية يصبح أسير الأقدار لا سيد نفسه^(٣) ذلك أن العبودية تتم عن " عجز الإنسان عن كبح إنفعالاته والتحكم فيها ، ... والإنسان الذي تقهره الإنفعالات لا يكون ولي نفسه بقدر ما يخضع لسلطان القدر ، حتى إنه غالباً ما يجد في نفسه مجبراً على القيام بالأسوأ مع انه يرى الأفضل"^(٤).

بمعنى أن الإنسان الحر هو الإنسان الذي يسيطر على شخصيته الفردية التي تطبع نفسها بمثله وقيمه العليا ، بحيث تصبح هذه الفردية هي المتحكمة والمسيطرة على نشاطه ورغباته وما يدخل بينها من ارتباط^(٥). وكل ما يكون الإنسان علتة الفاعلة ، يكون خيراً بالضرورة ، وبالتالي فكل ما يطرأ على الإنسان من شر إنما يطرأ عليه من أسباب خارجية ، أي من جهة كونه جزءاً من الطبيعة الكلية ، التي ينبغي أن تخضع لها طبيعته الإنسانية وأن تطيع قوانينها وتتكيف معها بعدد لا محدود من الأوجه^(٦). ولكن يتعذر على الإنسان مهما كانت غايته المنشودة ، أن يتخلى عن ماهيته ويتجرد من طبيعته ، بل على العكس ، هو لن يبلغ غايته ولن يتحقق عيشه في الفضيلة إلا بالعيش وفق قوانين طبيعته الشخصية^(٧) ، فالفضيلة عند سبينوزا لا تتناقض مع معنى (الكوناتوس) ، مادام الكوناتوس يمثل الجهد المبذول والعمل بموجب توجيه العقل ، أي السعي إلى

١. فؤاد زكريا : المصدر السابق ، ٢٠٩ .

٢. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج ٣ ، ص ١٢٨ .

٣. ابراهيم مصطفى ابراهيم : الفلسفة الحديثة ، ص ٢٠٧ .

٤. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢٢٩ .

٥. ابراهيم مصطفى ابراهيم : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

٦. سبينوزا : المصدر السابق ، ٣٠٣ .

٧. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ١١٣ .

اكتساب ما يؤدي إلى المعرفة والأفكار المناسبة والمشاعر والعواطف الحية^(١). لنجد في فلسفة سبينوزا إعادة لبناء وصف ماهية الطبيعة الإنسانية وتحليله للأهواء والوجدانيات. فالعاطفة أو الشعور ليست خيراً أو شراً في نفسها ، ولكن بمقدار ما تنقص أو تزيد من قوتها^(٢). "والكوناتوس" بما هو الجهد الذي به يسعى كل كائن للاستمرار في كيانه ، إنما هو ماهية الشيء الفعلية : إنه قوة مثبتة ، لأنه يثبت في الشيء ذاته ، قوة المقاومة ضد كل ما يناقضه ويحطمه . إذ بفضل يستطيع الإنسان - بوصفه حالاً محدوداً ككل الكائنات - أن يثبت ذاته كفرد ، أي كوحدة مركبة ومركبة ، باقية ومستمرة رغم التباين والتغير . وهكذا فإن الكوناتوس إنما هو قوة الوجود المعبرة بالضرورة داخل كل الكائنات الفردية عن قدرة "الله" اللانهائية باطلاق^(٣). والإنسان بفضل ما يمتلك من (كوناتوس) ، أو قوة في التعبير عن الرغبة ، قادر على أن يمتلك الحرية ، لكن التأثيرات التي يفسرها بأنها جوهرية ، مرتبطة بالجوهـر " أي الله " وما يتبعه ، لا بالارادة والى ما يحكمها^(٤).

إن مبدأ سبينوزا الأساسي الذي فسر من خلاله كل مظاهر سلوك الإنسان ، أي مبدأ (الاستمرار في الوجود) ، هو في حد ذاته مبدأ للفاعلية ، بينما هو يعد كل ما يعوق فعل الإنسان شراً^(٥). وإذا كان "الكوناتوس" يعبر عن الماهية الفعلية للأحوال المحدودة ، باعتبار أن ماهية الإنسان تختلف عن ماهية الكائنات الطبيعية الأخرى ، فإن ماهيته تكون مختلفة هي أيضاً^(٦).

والإنسان إذا تحكمت به العواطف لا يرى إلا جانباً واحداً من الموقف . وبالفكر وحده يستطيع الإنسان أن يرى موقفه من جميع نواحيه . إن العاطفة فكرة ناقصة ، والعواطف الغريزية عظيمة كقوة دافعة ولكنها خطيرة كمرشد لنا ، لأن كل واحدة من الغرائز تبحث

1 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 104

٢. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤١ .

٣. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٤٠ .

4 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 70 – 71 .

٥. فؤاد زكريا : اسبينوزا، ص ٢١٥ .

٦. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٤١ .

عن اشباع رغباتها ، غير مهتمة بمصلحته الشخصية كلها^(١) ، وإذا كان " يمكن لقوة الهوى والانفعال أن تتفوق على أفعال الإنسان ، أي على قوته ، بحيث يظل الانفعال عالقاً بهذا الإنسان ... فإنه لا يمكن لانفعال من الانفعالات أن يزول أو يُعاق إلا بانفعال مناقض له وأقوى منه "^(٢). فكونك عظيماً -برأي سبينوزا- لا يعني إنك فوق الإنسانية وتتحكم بالآخرين ، بل يعني أن تقف فوق الشهوات وأن تحكم نفسك بنفسك^(٣).

ونختم الحديث في ماهية الإنسان بنص لسبينوزا ضمن (رسالته في اصلاح العقل) يقول فيه: " في انشغالنا وسهرنا على ابقاء العقل في الطريق السوي ، لا بد لنا أن نعيش ، ولا بد بالتالي أن نضع عدداً من القواعد ننظر إليها على أنها قواعد جيدة ، وهي^(٤) :

١. أن يكون حديثنا في مستوى عامة الناس وأن نسلك سلوكاً يروق لهم ولا يمنعنا من بلوغ هدفنا : فنحن قد نجني الكثير من ذلك ، بشرط أن تنزل عند رغباتهم قدر الامكان ، هذا فضلاً عن اننا سنجد بهذه الطريقة آناً صاغية للحقيقة .

٢. أن نتمتع بملذات الدنيا في حدود ما يساعد على حفظ الصحة .

٣. ألا نرغب في المال ولا في أي خير آخر إلا بقدر ما يفيدنا في حفظ حياتنا وصحتنا وفي الامتثال لطبائع المجتمع التي لا تناقض هدفنا .

بعد هذه القواعد أشرع ... في اصلاح العقل وجعله قادراً على إدراك الأشياء إدراكاً يسمح ببلوغ الهدف المنشود ". ويشير د. فؤاد زكريا إلى أن النتائج الاجتماعية الواضحة التي يستخلصها سبينوزا من نظريته في قهر الانفعالات . هذه النتائج تلخص في ان الانفعالات هي أساس الشفاق بين الناس ، وإن العقل أساس التقريب بينهم . فإذا كان العقل هو وسيلتنا إلى قهر الانفعالات ، فلا بد أن سعي الإنسان إلى التغلب على انفعالاته يؤدي هو ذاته إلى تأكيد المعاني الاجتماعية في نفس الإنسان^(٥).

١. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤٢ .

٢. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢٣٩ .

٣. جون ديوي : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

٤. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص ٣١ .

٥. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢٢٠ .

المبحث الثاني : الإنسان ما بين الطبيعة المطبوعة والطبيعة الطابغة^(١).

أولاً / الإنسان والطبيعة Human and nature

يقول د. فؤاد زكريا عن سبينوزا : "إن الأخلاق من وجهة نظر معينة مستحيلة في مذهبه ، وهي من وجهة أخرى أساس ذلك المذهب والعنصر الجوهرية فيه ، ومن المستحيل تفسير هذا الازدواج الغريب إلا من خلال الارتباط الوثيق بين موضوع الأخلاق (وهو الإنسان) ، وبين (الضرورة الطبيعية) في مجموعها"^(٢) . فبرأي سبينوزا معظم الأخطاء والأوهام التي تتخلل فكر الإنسان إنما تعود إلى وهم أصلي رئيسي هو وهم (الغائية) ، وتمثل عموماً في تصور الآلهة والطبيعة على أنها تسلك بكامل الحرية ودائماً لأجل غاية محددة ، إذ لما كان الناس يجهلون عادة علل الظواهر فقد تصوروا وجود مدير أو مدراء للطبيعة يتمتعون بحرية إنسانية يستجيبون لحوائجهم ويسخرون كل الأشياء لهم^(٣).

لكن انطلاقاً من الرغبة - التي هي ماهية الإنسان- تتطور كل التحولات التي يسجلها الإنسان بواسطة جسم ويؤولها بفضل فكره ، وهي تحولات تنشأ فيه بسبب حضوره في العالم ، في فضاء توجد فيه أجسام أخرى^(٤) . فالإنسان إذ يعي أعماله وأسبابها يدرك ذاته كجزء من الطبيعة تابع للكون بأسره^(٥) وفي ذلك يقول سبينوزا : " ان قدرة الإنسان محدودة جداً ، وتتفوق عليها قدرة الأسباب الخارجية بصورة لا محدودة ، وعلى ذلك فليس

١ . الطبيعة الطابغة عند سبينوزا هو " ما يكون بذاته ومتصور بذاته ، أي صفات الجوهر تلك التي تعبر عن ماهية أزلية لا متناهية ... أو الإله من جهة اعتباره علة حرة " ، أما الطبيعة المطبوعة فهي " كل ما ينتج عن وجوب كل صفة من صفات الله ، وأيضاً ... كل أحوال صفات الله ، باعتبارها أشياء موجودة في الله ولا يمكنها بدونها أن توجد ولا أن تتصور " (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٦٣-٦٤) .

٢ . المصدر السابق : ص ٢٠٤ .

٣ . جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص ٩٥ .

٤ . فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٥٥ .

٥ . المصدر السابق : ص ٤٨-٤٩ .

لدينا قدرة مطلقة على تسخير الأشياء الخارجية لصالحنا . إلا اننا سنواجه بالصبر الأمور المناقضة لمصلحتنا الشخصية اذا شعرنا اننا قد أوفينا مهمتنا وإنه لم يكن بالإمكان، بما توفر لدينا من القوة ، أن نتحاشى تلك الأمور ، واننا لا نعدو أن نكون إلا جزءاً يخضع لنظام الطبيعة الكلية التي ينتمي إليها^(١).

ومن هنا كان قول سبينوزا : " نرغب في تكوين فكرة عن الإنسان تكون بمثابة النموذج للطبيعة البشرية موضوعاً نصب أعيننا "^(٢). فكان أهم طابع يمثل النظرية الأخلاقية عند سبينوزا هو القول إن الإنسان لا يقف بمعزل عن الطبيعة وقوانينها ، فهو قد انتقد بشدة اولئك الذين يظنون إن للإنسان سلطاناً مطلقاً على أفعاله ، وإن شيئاً لا يتحكم فيه سوى ذاته^(٣). وهنا يتفق سبينوزا تماماً مع التعاليم الأخلاقية الرواقية ، من حيث قيام الأخيرة على مبدئين أساسين : أولهما أن الكون محكوم بقانون مطلق لا يسمح بأي استثناء ، وثانيهما أن الطبيعة الجوهرية للإنسان هي العقل . وكلا المبدئين يتلخصان في الشعار الرواقي (عش وفق قوانين الطبيعة) ، فالناس يجب أن يتطابقوا مع الطبيعة أي مع قوانين الكون ، كما يجب أن يطابقوا أفعالهم مع الطبيعة حسب طبيعتهم الجوهرية أي العقل^(٤). وعلى الاجمال ، رواقياً ، لا مجال للقول بالعصيان أمام فكرة الضرورة في تعامل الانسان مع قوانين الطبيعة .

لكن الإنسان وإن كان جزءاً من الطبيعة ، فإن علاقاته بالعالم الخارجي علاقات عداة متوترة انها علاقات قوة وعلاقات صراع . ولا يضع سبينوزا مسافة يتعذر قطعها بين الإنسان (بما هو ذات منعزلة) وعالم الأشياء ، فالعلاقة إنسان / عالم ، إنما هي المعطى الأول للتجربة الإنسانية. إلا أن كيفية هذه العلاقة هي ما يحدد قدرة الإنسان أو عجزه . وتتجلى هذه العلاقة إنسان / عالم على مستويات متنوعة^(٥). " ولا شيء مما يحدث في

١. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣١١ .

٢. المصدر السابق : ص ٢٣٢ .

٣. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢٠٣ .

٤. وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

٥. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٧٠ .

الطبيعة يمكن أن ينسب إلى عيب كامن فيها ، إذ الطبيعة هي هي على الدوام^(١) ، وفضيلتها وقدرتها على الفعل واحدة ، وهي ذاتها في كل مكان ، أي أن قوانين الطبيعة وقواعدها التي تحدث بمقتضاها الأشياء وتنتقل من شكل إلى آخر هي نفسها دائماً وفي كل مكان . وتبعاً لذلك ينبغي أن يكون المنهج السليم لمعرفة طبيعة الأشياء ، مهما كانت هذه الأشياء ، نفس المنهج ، أي منهجاً ينطلق دائماً من قوانين الطبيعة وقواعدها الكلية^(٢).

إلا أن سبينوزا لم يقتصر في تفرقة بين الإنسان وباقي الأشياء على رد الاختلاف إلى ما لدى الإنسان من قدرات أعظم للإدراك ، إذ أن عقلنا فعال في حالات معينة وسالب في حالات أخرى ، إنه سالب إلى حد أن أفكارنا المميزة تتوالى الواحدة منها عقب الأخرى من تأثير فاعلية منبه خارجي فحسب ، وتبعاً لنظام الطبيعة . وعقلنا فعال من ناحية أخرى ، كما يبين من تعاقب أفكارنا المميزة للمنطق واتباعه لقوانينه^(٣).

ولمعرفتنا بالطبيعة قيمة سامية "علياً" يحددها سبينوزا بقوله في اصلاح العقل : " كلما اتسعت معرفتنا للطبيعة اتسعت معرفتنا للعلّة الأولى أو الله "^(٤) ، وقوله في كتابه الأخلاق : " كلما ازداد فهمنا للأشياء الجزئية ، ازداد فهمنا للذات الإلهية "^(٥) . إذ تقتضي تقتضي الايتيقا السبينوزية وحدة كلية بين الطبيعة والله^(٦) ، فالطبيعة والله جوهر واحد لا متناه بشكل مطلق وغير قابل للتجزئ . وهو العلة الأولى للوجود ، من دونه لا يمكن أن

١. فضمن قانون الضرورة لا مجال للاختيار أو الجبر ، ولا حرية ولا قسر ، والطبيعة هي هي لا فضائل فيها ولا آثام ، فالاشجار لن يعينها أبداً فيما إذا كانت ثمارها ستروق لنا أم لا ، وسنتظل نتنتج في الوقت نفسه وبالطريقة نفسها الثمار نفسها (شبانى ، منذر ، سبينوزا واللاهوت ؛ منشورات وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب ، بلاط ، ٢٠٠٩ ، ص ٩٨).

٢. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ١٤٦ .

٣. شاخت ، ريتشارد ، رواد الفلسفة الحديثة ؛ ترجمة : أحمد حمدي محمود ، مهرجان القراءة للجميع ٩٧ ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بلاط ، ١٩٩٧ ، ص ١١٩ .

٤. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص ٥٦ .

٥. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٣٦ .

٦. يقول سبينوزا : " الله حاضر في كل مكان ويرى كل شيء " (سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص ٣٥٠) .

توجد الأشياء ، وخارجه لا يمكن تصورها ، إنه علة كل شيء . ولهذا الجوهر اللا متناهي الفريد صفات لا نهائية ، تتمثل في صفتي "الامتداد" و"الفكر" وتتمظهر في الإنسان بوصفه جسماً وفكراً^(١). " فكل ما يطرأ على الجسم فهو يصدر عن الله بوصفه متأثراً بحال من أحوال الامتداد ، لا بحال من أحوال الفكر ، بمعنى انه لا يمكنه أن يتأثر عن النفس التي هي حال من أحوال الفكر "^(٢). وفكر الإنسان ، وجسد الإنسان أيضاً ، جزء من الطبيعة ، جزء من عقل "الله" اللا محدود (اللا نهائي) . وكل انسان من حيث هو روح وفكرة جسم ، إنما هو ينتج بالضرورة عن الماهية الإلهية أو ماهية الطبيعة^(٣). وإذن فمن المحال أن يكون الإنسان حراً بمعنى أن له مشيئة أو ارادة تسلك من تلقاء ذاتها دون أن يتحكم في سلوكها سبب خارجي ، إذ أن الإنسان على صلة مستمرة بعوامل لا متناهية في العالم المحيط به ، ومن المحال أن يسلك على أي نحو دون أن يأخذ هذه العوامل بعين الاعتبار^(٤). فالإنسان "ينقاد وراء النظام العام للطبيعة ، ويتمثل له ويتكيف معه بقدر ما تقتضيه طبيعة الأشياء"^(٥). وبعبارة أخرى ، فإنه لا يتعين تصور الإنسان باتباع منهج آخر غير المنهج المطبق على باقي الطبيعة ، فنحن جزء من الطبيعة ولا شيء غير ذلك^(٦). إذ "من المحال ألا يكون الانسان جزءاً من الطبيعة وألا يتأثر إلا بالتغيرات التي يمكن معرفتها بطبيعته وحدها والتي هو علتها التامة ... فلو كان بوسع الانسان ألا يتأثر إلا بالتغيرات التي يمكن معرفتها بطبيعته وحدها ، لما كان الانسان فانياً ، ولكان وجوده مستمراً بالضرورة"^(٧).

١. سليمانى ، الحسان ، بحث (جدلية التعالي والمحايتة في الفلسفة الحديثة - نقد سبينوزا للأصول الأرسطية والأسس الديكارتية للتعالي الالهى) ؛ مجلة تباين ، العدد ٢٥ - ٢٥٧ ، سنة ٢٠١٨ ، ص ٢٥ .

٢. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ١٥٠ .

٣. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٥٦ .

٤. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢١٠ .

٥. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢٣٨ .

٦. شاخنت : رواد الفلسفة الحديثة ، ص ١١٢ .

٧. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٣٧ .

ويشير دولوز إلى أن الأخلاق عند سبينوزا هي التي تبرر الوحدة ما بين (الله والطبيعة)^(١). ذلك أن نقطة البداية الأساسية في نظرية سبينوزا الأخلاقية هي الإدراك العلمي للارتباط بين الإنسان وبين الطبيعة بوجه عام^(٢) ، ومن ثم تأكيد سيادة فكرة الضرورة في مجال الإنسان بدوره^(٣). "فنحن "ننفعل بوصفنا جزءاً من الطبيعة يتعذر تصوره بذاته ودون الأجزاء الأخرى ، ونكون منفعلين عندما يحدث شيء فينا لا نكون علته إلا جزئياً^(٤) ... عندما يحدث شيء فينا لا يمكن استنباطه من قوانين طبيعتنا وحدها"^(٥). لذلك يقول سبينوزا في خطابه لأحد أصدقائه: " أرى أن العقل الإنساني جزء من الطبيعة ، وذلك لأن الطبيعة توجد بها قوة مفكرة لا متناهية فإنها تعبير عن الطبيعة كلها ، وتحوي بصورة مثالية كل ما فيها ، وتأتي أفكارها بنفس النظام الذي تحدث به في الطبيعة ذاتها ، بل تكون في الحقيقة المرآة المثالية لها ... العقل الإنساني يشبه هذه القوة (الفكر الالهي) ولكن ليس بسبب لا تناهيه وإدراكه لكل الطبيعة ، وإنما بسبب ادراكه لكل طبيعة الجسم الإنساني الذي يتوازن به ولهذا اعتبر العقل الإنساني جزءاً من اللا متناهي"^(٦).

وهكذا فلإنسان عند سبينوزا قوة مميزة يثبت بها وحدته واختلافه عن الأشياء الفردية الأخرى^(٧). لكنه ، على الرغم من اختلافه ، فهو يظل مماثلاً لغيره . وبالفعل فهو جزء

1 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 6 .

٢ . لأننا كلما تعمقنا في فهم قوانين الطبيعة الشاملة كنا أقدر على فهم سلوك الانسان (فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢٠٥).

٣ . فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢٠٣ .

٤ . على اعتبار أن الطبيعة عند سبينوزا خالية تماماً من القيم البشرية .

٥ . سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢٣٦ .

٦ . نقلاً عن : رويس ، جوازيا ، روح الفلسفة الحديثة ؛ ترجمة : أحمد الأنصاري ، مراجعة . حسن حنفي

حنفي ، المركز القومي للترجمة - القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٩ ، ص ١٤٥ .

٧ . على اعتبار أن الانسان تحركه قوة باطنية تدفعه إلى اثبات ذاته وإلى المقاومة والتصدي لضغوط العناصر الأخرى داخل النظام المؤلف للطبيعة (فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٤٢).

من كل ، جزء من الطبيعة الكلية ، رغم إنه يؤلف بمفرده كلاً واحداً قادراً على اثبات فرديته ضمن المجموعة الكلية^(١).

ثانياً / في طبيعة المتناهي واللامتناهي (الإنسان و"الله") "Human and God"

تمثل الطبيعة الطابعة عند سبينوزا النظام الكلي للأشياء من حيث انه ذو وجود ضروري ، لا يتحكم فيه شيء خارج عنه ، أي أن العلة فيه باطنة . في حين تمثل الطبيعة المطبوعة الأوجه الجزئية أو المكونات الموجودة في العالم من حيث هي تعبير جزئي عن "الصفات" الشاملة للجوهر ، ومن أمثلتها الأجسام الفردية - بما فيها الانسان - والتي لا تفهم قوانين أوجهها بذاتها ، بل ينبغي دائماً ربطها "بالكامل الشامل" الذي تنتمي إليه^(٢) أي "الله". "والله" عند سبينوزا موجود على نحوين : لا متناه ومنتاه . فهو في الأشياء الفردية موجود على نحو متناه ويؤلف ما يسميه سبينوزا (بالأحوال) ، أما في الطبيعة من حيث هي كل فهو موجود على نحو لا متناه ويؤلف ما يسميه (بالصفات Attributes)^(٣). لكن الناس رأوا أنفسهم يسلكون دائماً من أجل غاية تتفهمهم ، وظنوا أن "الله" قد سخر كل الأشياء لغاية خدمتهم ، فقد أطلقوا لفظ (الخير) على كل ما يساعدهم على حفظ أنفسهم ولفظ (الشر) على كل ما يعوقهم عن ذلك^(٤).

فمن اللازم إذن التمييز الدقيق بين ما "الله" وما للإنسان ، أي التمييز بين ماهية الإله وخصائص الإنسان ، وبتعبير سبينوزي من الضروري التمييز بين الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة^(٥) فالأولى الإله باعتباره جوهرًا فريداً علتته في ذاته ، والثانية مجموع

١. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٤١ .

٢. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ١١٩ .

٣. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص ١٠٩ .

٤. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص ٩٨ .

٥. "الطبيعة الطابعة هو ما يكون بذاته ومنتصور بذاته ، أي صفات الجوهر (الله) تلك التي تعبر عن ماهية أزلية لا متناهية ... ، أما الطبيعة المطبوعة فهي كل ما ينتج عن وجوب الطبيعة الإلهية ، أي كل

الأحوال من أسبسطها إلى أعقدها ، وتضم الموجودات العينية مثل النبات والإنسان وجميع أجزاء الوجود^(١).

فالكوناتوس -كمبدأ حياة- عند سبينوزا يشير إلى مبدأ ديناميكي لدى الفرد الذي يسعى إلى الوجود ويدأب عليه^(٢)، ويبقى هذا الجهد في (الحال المحدود) ضمن نظام الطبيعة حيث تخضع جميع الأشياء الفردية لحتمية مزدوجة ، حتمية تأتيها من "الله" وحتمية تأتيها من الأسباب الخارجية ، باعتبار أن "الله" ، بوصفه علة كلية ، يحدد الأشياء الفردية عن طريق سلسلة لا متناهية من الأسباب المتناهية^(٣).

وكان سبينوزا يدعونا أن نشاركه حدسه الفلسفي الرئيس ، ألا وهو المتمثل في أن نحول من وجهة نظر الإنسان إلى وجهة نظر "الله"^(٤). فلما كان كل شيء إنما يتلو بالضرورة من ماهية "الله" ، فإن العالم ، إذ تحكمه ضرورة معقولة " لا تلغي لا قانون الله ولا قانون عباده " لا يخضع للقدر المحتوم وللجبرية العمياء . ويقدر ما تكون أفعال الإنسان ضرورية تكون ناجعة ، لأنها تستخدم نظام الأسباب وتعتبر عن قدرة الإنسان المميزة التي هي المعرفة التامة بالذات وبالكل^(٥).

وهكذا يكون من الواضح أن الحرية بمعناها الحقيقي لا تتوافر في هذه الحالة إلا للكون بمعناه الشامل ، الذي لا يتحكم فيه شيء ولا يوجد شيء خارجه حتى يقال إنه يرغمه . وهذا هو معنى العبارة المصوغة بلغة لاهوتية ، والقائلة "إن الله وحده هو

ما ينتج عن وجوب كل صفة من صفات الله و ... كل أحوال صفات الله ، باعتبارها أشياء موجودة في الله ، ولا يمكنها بدونه أن توجد ولا أن تتصور " (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٦٣-٦٤) .

١ . الحسان سليمانى : جدلية التعالي والمحايدة ، ص ٢٤ .

٢ . وذلك بوصف الكوناتوس أو الرغبة ، الجهد الذي يسري في الكون كحركة ديناميكية تسكن الطبيعة وتجعلها تتحقق في كل لحظة وحين ، وتحقيق هذا الجهد يدفع الانسان الى الدخول في علاقات تأثير وتأثر مع الأشياء الخارجية ، وهو ما يسميه سبينوزا بالانفعال (بال مرابي : بحث ، الرغبة والنسق الايثولوجي في فلسفة سبينوزا ، ص ١٠) .

٣ . فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٣٨-٣٩ .

٤ . جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص ١٠٤ .

٥ . فاطمة الشامخ : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

الحر"^(١). ولو تساءل الإنسان ماذا سيتعلم من الجبرية ؟ ، فالجبرية تقوينا على احتمال متاعب الحياة أوزارها^(٢). لأننا نتذكر أن جميع الأشياء تسير وفقاً لقوانين "الله" الأبدية ، وربما تعلمنا محبة "الله" العقلية ، وأن نتقبل قوانين الطبيعة بسرور ... فالله هو الثابت المدبر لنظام الكون^(٣).

فكل شيء -تبعاً لسبينوزا- تحكمه ضرورة منطقية مطلقة . وليس ثمة شيء من قبيل الإرادة الحرة في المجال العقلي أو الصدفة في العالم المادي . فكل شيء يحدث هو تجلٍ لطبيعة "الله" التي لا يمكن فهمها ، ومن المستحيل منطقياً أن تكون الأحداث غير ما هي عليه^(٤).

إن النفس الإنسانية "بوصفها تعرف ذاتها وجسمها من منظور الأزل ، تعرف الله بالضرورة وتعلم أنها قائمة فيه وتتصور به"^(٥) ولكن حين يتحد الإنسان مع "الله" لا يتخلى يتخلى عن ذاته ، بل يحقق ذاته بصورة كاملة ويصبح أكثر من (حال متناه) . وحينئذٍ يكف عن الغيرة والكراهية ، ولكن لا يكف عن الحب ، وإنما يكف عن حب الأشياء المتناهية : فيحب الأشياء لا من حيث هي أشياء متناهية بل من حيث هي تعابير عن اللا متناهي ، ويحب الناس لا من حيث هم رجال ونساء ، بل من حيث هم تجسيد للكائن الأزلي^(٦).

"وحين يبلغ الإنسان أعلى مراتب الكمال يحصل على السعادة القصوى أو الطوبى Blessedness ، فالخير الأسمى هو معرفة "الله" ، وحين يعرف الإنسان "الله" معرفة حدسية لا يملك إلا أن يحبه ... وإذا استبدلنا "بالله" الطبيعة ، أمكننا أن نقول ان سعادة الإنسان القصوى تقوم في معرفة الطبيعة ومعرفة قوانينها معرفة واضحة وكافية من

١. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢٠٩ .

٢. ذلك أن عقيدتنا بالجبر تصلح من حياتنا الأخلاقية وتعلمنا أن لا نكره أو نسخر من أحد أو نغضب من أحد (جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤٤) .

٣. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤٤ .

٤. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج٣ ، ص ١٢٤ .

٥. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٣٩ .

٦. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص ١٢٢-١٢٣ .

منظورها الأزلي^(١). فإن السعادة -في ظل قول سبينوزا "بوحدة الوجود"- لا تكمن في التحقق بأمر "الله" وترجمته في خضوع للشرع ، وآراء للشعائر ، بل ان كل ذلك من عمل المقطوعين ، أما الواصلون فشأنهم الالتذاذ بالمعرفة ، فبقدر معرفة العبد "بالله" بقدر ما يكون أرقى ، ويتمتع بالوصول^(٢) ، ويدين بالحب العقلي "لله" ، "الذي لا يوجد في الطبيعة أي شيء مناقض لهذا الحب العقلي^(٣) ، أي قادر على إبطاله"^(٤).

والتقدم الأخلاقي لا يمثل ارتقاءً عبر درجات ، أو عبوراً لمسافة معينة ، وإنما هو بمعنى اكتشاف الذات لذاتها ، وتحررها من الجهل ، واهتدائها إلى الحقيقة ، ولا سيما أن الحقيقة -في نظر سبينوزا- ليست غاية نسعى إلى بلوغها ، بل نحن قائلون فيها لأننا قائلون في الوجود والواقع ، أي في "الله"^(٥). كذلك نحن " لا نرغب ، من حيث أننا نفهم ، إلا في الأمور الضرورية ، ولا يمكن أن نجد راحتنا إلا في الحقيقة"^(٦). وليست الحياة الأبدية بقاء النفس بعد فناء الجسم ، أو الخلود في عالم مفارق^(٧)، وإنما الحياة الأبدية معرفتنا ذاتنا من وجهة الأبدية وتأمل النظام الكلي . وبعبارة أخرى إن النفس سرمدية من حيث هي حاصلة على معرفة الحقائق السرمدية ، وكلما ازدادت معرفتها ازداد حظها من الخلود^(٨).

١. المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

٢. بن الحسن ، بدران ، بحث (فلسفة وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم - الجزائر) ؛ العدد ١٠ ، سنة ٢٠١٠ ، ص ٥٦ .

٣. يقول سبينوزا : " من كان يحب الله ، لا يمكنه أن يسعى إلى أن يبادل الله الحب " ، " فليس للإله إنفعالات سلبية ، وهو لا يشعر بأي انفعال من انفعالات الفرح والحزن " (سبينوزا ، علم الأخلاق ، ص ٣٢٩ ، ٣٣١) .

٤. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٤٥ .

٥. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص ١١٨ .

٦. سبينوزا : المصدر السابق ، ص ٣١١ .

٧. على اعتبار أن النفس فكرة الجسم ولا توجد إلا بوجود الجسم .

٨. عويضة ، كامل محمد محمد ، باروخ سبينوزا " فيلسوف المنطق الجديد " ؛ دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٣ ، ص ٦٤ .

لذلك يقول سبينوزا : " من يعرف ذاته وانفعالاته بوضوح وتميز يشعر بالفرح ، ويكون ذلك مقترناً بفكرة الله ، وبالتالي فهو يحب الله ويزداد حبه بقدر ما تزداد معرفته لذاته وانفعالاته " (١) وبالتالي " فإن النفس ، باعتبارها تتشرح بهذا الحب الإلهي أو الغبطة ، تستطيع كبح شهواتها . ولما كانت قدرة الإنسان على كبح الانفعالات إنما تتمثل في الفهم لا غير ، فلا أحد إذاً تحصل له بهجة السعادة بكبح شهواته ، بل على العكس ، إن القدرة على كبح الشهوات تنشأ عن السعادة نفسها " (٢). فإن الخير الوحيد الذي يدركه عقلنا والخير الخلفي ما أئمنى العقل والشر ما انتقصه وأفسده ، وذلك هو الدين الحق الذي نجده في أنفسنا (٣)، لذا كان " الورع هو حيناً لمن أثار اعجابنا " (٤).

" وليس اكتمال الذهن غير معرفة الله وصفاته والأعمال اللازمة عن وجوب طبيعته (٥). وعلى ذلك فإن الغاية القصوى للإنسان الذي يهتدي بالعقل ، أي الرغبة الرئيسية التي تسمح له بتنظيم كل الرغبات الأخرى ، هي التي تدفعه إلى تصور نفسه ، وتصور جميع الأشياء التي تظهر لعقله بوضوح ، على نحو تام " (٦). فمن شأن طبيعة الإنسان المتناهية أن تدعه غير معقول عند نفسه ، وهو إنما يعقل ذاته بردها إلى النظام الكلي السرمدي ، واعتبارها جزءاً من الجوهر الأوحد (٧). فالله (كسبب فعال) (١) هو

١. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٢٩ .

٢. المصدر السابق ، ص ٣٥١ .

٣. كامل محمد عويضة : اسبينوزا ، ص ٦٤ .

٤. سبينوزا ، المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

٥. يقول سبينوزا : " مع أن المعرفة الفطرية معرفة إلهية بمعنى الكلمة ، فإننا لا يمكن أن نسمي من يقومون بنشرها أنبياء ، إذ يستطيع كل فرد أن يدرك تعاليم المعرفة الفطرية ويفهمها بنفس اليقين ، دون الاعتماد على الإيمان وحده " (سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص ١٢٠) وتالياً فإن النبي لم يكن عالماً أو فيلسوفاً وما كان بإمكانه أن يكون لذلك ، فهو لم يمتلك المعرفة التي تؤهله لفعل ذلك ، وظل على مستوى المعرفة الظنية ، ثم إن مهمته انحصرت في التعاليم الأخلاقية والقواعد العلمية ، وهي الركن الهام في كل وحي (منذر شباني : سبينوزا واللاهوت ، ص ٩٢) .

٦. سبينوزا : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

٧. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ١١٥ .

جوهر ذاته ، وجوهر كل شيء ، وعلة ذاته ، ومن هنا جاءت وحدانيته^(٢). وهكذا يظن الإنسان إنه برفيقه وتقدمه الأخلاقي سيبلغ مرحلة الاتحاد بالله ، فإذا تحقق رقيقه وأنتهى تقدمه ، أدرك إنه لم يكن منفصلاً عنه أبداً^(٣).

المبحث ٣ / من الحياة العقلية إلى الحياة العملية From rational life to practical life

يقول سبينوزا : " انني أريد توجيه العلوم نحو غاية واحدة وهدف أوحده وهو بلوغ ذلك الكمال الإنساني الأعظم ... وبالتالي ينبغي أن نطرح عرض الحائط كل ما لا يفيدنا في العلوم للاقترب من هدفنا ، وباختصار يجب أن نوجه كل أعمالنا وأفكارنا في إتجاه هذه الغاية"^(٤). ولما كانت ماهية الإنسان في نظر سبينوزا - كما مر بنا - هي الرغبة ، فإن الحياة "العاطفية" والشعورية ستكون هي الأولى بالنسبة للإنسان ، وعليها تتأسس الحياة العقلية كتصور واضح متميز للذات والعالم وكتأمل^(٥).

ولتكن البداية من هنا ، فقد أشار سبينوزا إلى أربعة أنواع من ضروب الإدراك ، هي اختصاراً على النحو الآتي :

١- ادراك مكتسب بالسمع . ٢- ادراك مكتسب بالتجربة المبهمة ، أي تجربة لا يحددها العقل ، وهو إدراك يبقى راسخ فيما لم تكذبها أي تجربة أخرى . ٣- ادراك نستتبط فيه ماهية الأشياء من أشياء أخرى ، أي عندما نستتبط من المعلول علته ، وهو ادراك عقلي

١ ان كون الله ينتج من خلال نفس الصفات التي تؤسس لجوهره يعني أن الله هو سبب كل الأشياء بنفس المعنى إنه سبب ذاته . ومن ثم فإن وحدة الصفات تمتد إلى وحدة السبب ، فيقال في ذلك "السبب الفعال" بنفس معنى "السبب في ذاته" (Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p) . 53 .

2 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 53 .

٣ . جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص ١١٨ .

٤ . سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص ٣١ .

٥ . فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٥٦ .

٤- ويوجد أخيراً ادراك للشيء بماهيته وحدها ، أو من خلال معرفة علته القريبة .^(١) وهذه الأخيرة هي المعرفة العقلية الحدسية .

ففيما يتعلق (بالضرب الثاني) من ضروب الادراك يرى سبينوزا " إن هذه المعرفة مشكوك فيها كثيراً وليست معرفة نهائية ... وبالتالي لا بد من استبعاد هذا النوع من المعرفة ، وعلى خلاف ما سبق ، يجب أن نقول عن (الضرب الثالث) من ضروب المعرفة إنه يقدم لنا فكرة الشيء ، كما إنه يسمح بالاستنتاج دونما خوف من الوقوع في الخطأ ، إلا إنه لا يفيد بذاته في بلوغ الكمال ، (الضرب الرابع) هو الوحيد الذي يدرك ماهية الشيء التامة دونما خوف من الوقوع في الخطأ ، وبالتالي فعلينا باستخدامه بوجه خاص"^(٢).

إن حياتنا العملية تابعة لحياتنا العقلية^(٣)، وتختلف باختلافها : ففي معرفة "الضرب الثالث" نعلم أن الطبيعة خاضعة لقوانين كلية ، وإننا جزء من هذه الطبيعة ، فنهتدي بأفكار المطابقة ونصير فاعلين بعد أن كنا منفعلين ، ذلك أننا حالما ندرك بالعقل أن أفرحنا وأحزاننا نتائج القوانين الطبيعية^(٤)، وبالمعرفة التي من " الضرب الرابع" ندرك ذاتنا ، ليس فقط كجزء من الطبيعة ، بل ندرك ذاتنا صادرة عن طبيعة "الله" ، إذ أن الفرد في حقيقة الأمر فكرة مجردة ، وليس الموجود الحق هو الفرد منفصلاً عن الكون ولا القانون الذي يربط الفرد بالكون ، بل الكون نفسه معتبراً لا كجملة أجزاء ، بل كوحدة جوهرية حاصلة في ذاتها على علة وجودها^(٥). فجهد الإنسان في القدرة على الفهم

١. ينظر ، سبينوزا : المصدر السابق ، ص ٣٢ .

٢. المصدر السابق ، ص ٣٤-٣٥ .

٣. يقول سبينوزا في السطور الأخيرة - غير المفقودة - من رسالته في اصلاح العقل : " لن أنظر هنا في ضروب التفكير الأخرى ، كالحب والفرح وما إليهما ، لأنها لا تقيد في تقدم مشروعنا الحالي ، ولا يمكن تصورها إلا بعد أن يتم إدراك العقل . فعلاً لو زال الادراك أزلت ضروب التفكير تلك " (سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص ٦٢) .

٤. على اعتبار أننا في معرفة الضرب الأول نتصور ذاتنا شخصاً قائماً بنفسه، والأشياء المحيطة بنا خيرات وشروء في أنفسها .

٥. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ١١٧ .

بوضوح يتعمق في النوع الثالث من المعرفة ، ويصل إلى اكتماله في النوع الرابع ، حتى تبلغ قوة الإدراك لديه الحقيقة الحدسية كقوة أو درجة من قوة الله المطلقة أو اللانهاية^(١). فهذه المعرفة - الأخيرة - (حدسية مباشرة) وتتجه إلى الماهية ، وهي كاملة لأنها تعتمد على الحدس العقلي المباشر^(٢). لذا فإن فوز الإنسان بالسعادة الحقيقية لا يأتي من المعرفة الظنية "بالله" ، ولا مما هو محسوس أو مادي بل إن السبيل الوحيد للوصول إلى السعادة القصوى والسعادة الحقيقية هو معرفة "الله" بكل تجلياته^(٣).

لكن مشروع سبينوزا الأخلاقي لا يتمثل في تعويض حياة الوجدان والعاطفة بالحياة العقلية ، بقدر ما يتمثل في تنظير الحياة العقلية فوق حياة الوجدان والعاطفة ، بل في تحويل الحياة العاطفية إلى نطاق العقل ، أو بعبارة أخرى ، في إدراك حياة العواطف والانفعالات وفهمها فهماً صحيحاً^(٤). فالعقل يقود الإنسان لا إلى زيادة قوته في التمثيل ، وهو لا يزال ينتمي إلى مجال العاطفة فحسب ، بل هو يمنح الفاعلية للحصول على سعادة الفرد بتكوينه للأفكار الصحيحة^(٥). وسبيل الإنسان إلى الحصول على السعادة القصوى هو المعرفة الحدسية Scientia Intuitiva التي تؤهله للتعالى على حدود الزمان والمكان وإدراك الأشياء في صورها الأزلية، ومن ثم الاتحاد "بالله" أو الطبيعة من حيث هي كل ... ففي المعرفة الحدسية لا يدرك الإنسان الأشياء في صورة قوانين مجردة ، بل يدركها من حيث هي أشياء حية محسوسة ، وبذلك يرى الأجزاء في الكل ويرى الكل في

1 Deleuze , Gilles, Spinoza : Practical Philosophy ; p 104 .

٢. ابراهيم ، ابراهيم مصطفى ، الفلسفة الحديثة من ديكرت إلى هيوم ؛ دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر - الاسكندرية ، بلا ط ، ٢٠٠١ ، ص ٢١٠ .

٣. شحادة ، محمد و الابراهيم ، عبد الرحمن عبد ، بحث (اشكالية السعادة عند سبينوزا) ؛ مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سوريا ، سلسلة الآداب والعلوم الانسانية ، مجلد ٣٨ ، العدد " ٣-٣-٢٠١٦ ، ص ٤٦٢ .

٤. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص ١١٤ .

5 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 103 .

الأجزاء ، وحين يحصل المرء على المعرفة الحدسية يدرك بأنه موجود في "الله" ، وبأن "الله" موجود فيه ويغدو سعيداً^(١).

أي أن الأخلاق التي ينادي بها سبينوزا هي : أن العلم ذاته له طابع عملي أخلاقي ، أي أن العلم والمعرفة يفتحان لنا أبواب الأخلاق ، مثلما تمهد الأخلاق الطريق للمعرفة . والمهم في الأمر إنه لا وجود "لأخلاق مجردة" منفصلة عن المجرى العام لعلم البشر ، وبذلك يتجاوز سبينوزا التفرقة بين (الواقع والواجب) ، أو بين (العلم النظري والبصيرة العلمية) ، وبين الأخلاق والعلم^(٢) . وليس معنى ذلك أن يتخلى الإنسان عن نفعه في سبيل التحليل العقلي المنطقي لكل الانفعالات ، فالتفكير والمعرفة لا يتعارضان مع تحقيق الإنسان لنفعه^(٣) ، بل إنهما في الواقع يساعدان عليه ، فهو يعارض القائلين بأن سعي الإنسان إلى تحقيق نفعه الخاص رذيلة ، ويثبت في مجموعة من القضايا إن سعي الإنسان الي نفعه الخاص ، إذا استرشد بالعقل ، يكون هو ذاته قوام الفضيلة^(٤).

إن أخلاق سبينوزا تسير مع فكرته فيما وراء الطبيعة . فكما إن العقل في الميتافيزيقا يحاول أن يدرك القانون الكامن وراء الأشياء الجزئية التي تقع تحت الحس ، فهو يقرر إن العقل يجب أن يضع قانوناً ينتظم رغبات الإنسان المتنافرة . وبعدئذ يستطيع الإنسان أن يسلك سلوكاً يتفق مع ما يمليه العقل الذي يعيننا على أن ننظر إلى المواقف المختلفة نظرة واسعة شاملة تنفذ بمساعدة الخيال إلى أبعد النتائج^(٥) . حيث " لا تجد النفس إلا في تخيل الأشياء التي تثبت قوة فعلها الشخصية ... وعندما تتخيل النفس عجزها فإن ذلك يحزنها"^(٦) ، فسبينوزا لا ينطلق من مرتكز صوفي^(١) بقدر ما ينطلق من فلسفة عقلية ذات

١. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص ١٢٢ .

٢. فؤاد زكريا : اسبينوزا ٢٠٥ .

٣. مبدأ سبينوزا في ذلك أنه لا ضير في أن تضحي بنفسك من أجل غيرك إلا إذا كان في ذلك قوة لك ، وهكذا يجب أن يحب كل انسان نفسه ، وأن يلتمس كل وسيلة ممكنة تأخذ بيده إلى مرتبة أدنى إلى الكمال (زكي نجيب محمود : م (فلسفة سبينوزا -٢-) ، ص ١٩-٢٠) .

٤. المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

٥. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤٣ .

٦. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢٠٠ .

ذات عمق ديكراتي ، يمجّد الفكرة ويجعل لها المقام الأعلى في الاعتبار ، حتى لا يعدو في الوجود سوى الفكر مرتكزاً^(٢). ويقدر ما يكون (جسم) الانسان الفرد أكثر قدرة من الآخرين على ادراك أشياء كثيرة في وقت واحد ، أو التحرك بطرق عديدة في وقت واحد ، كان (عقله) أكثر قدرة من الآخرين على فعل أشياء كثيرة في وقت واحد^(٣)، وفي ذلك نستشف تمهيداً لمثالية مطلقة هيكلية لا تقبل الشك .

إذ ليس هناك ما يسمى بقوى النفس ، فلا تمييز بين نفس وقوى ، ومن ثم لا تمييز بين (ارادة وعقل) ، ولكن الارادة ترجع الى العقل من حيث أن فكرة تتضمن ايجاباً : أي أن الارادة ميل العقل إلى قبول ما يروقه من المعاني واستبعاد ما لا يروقه^(٤) إذ يبين سبينوزا أن ارادة الإنسان ليست فقط القدرة الواعية لذاتها على الاثبات والنفي في مستوى القول ، بل هي أيضاً حركة الكيان بعينه ، بما هو جسم ووعي بالجسم تجاه الأشياء أو الكائنات الخارجية^(٥) وبالتالي فإن حكم الإنسان لنفسه هو أعظم ما يطلبه من حرية ، وهي حرية أنبل من التي يسميها الناس بالارادة الحرة^(٦).

المبحث الرابع / السعادة والفضيلة *Happiness and virtue*

١ في حين أن هناك فلاسفة يرون أن الصواب هو على العكس من ذلك ، فمثلاً يشير "ولتر ستيس" إلى وجود عنصر دخيل على عقلانية فلسفة سبينوزا هو عنصر الفكر الصوفي والوجدان الصوفي ، على اعتبار أن التصورات التي يقدمها سبينوزا عن لا نهائية "الله" ، والسعادة القصوى ، والادراك الحدسي "الله" ، ولا حقيقة الزمان ، هي دلائل على وجود هذا العنصر الصوفي (ستيس ، ولتر ، الزمان والأزل مقال في فلسفة الدين ؛ ترجمة: زكريا ابراهيم ، مراجعة. أحمد فؤاد الأهواني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ، بلا ط ، ٢٠١٣ ، ص ٣٣٩-٣٤٠) .

٢. بدران بن الحسن : وحدة الوجود بين ابن عربي وسبينوزا ، ص ٥٥-٥٦ .

3 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 103 .

٤. كامل مصطفى عويضة : اسبينوزا ، ص ٦١ .

٥. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٦٣ .

٦. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤٤ .

يقول سبينوزا : " لقد دهشت مراراً من رؤية أناس يفتخرون بإيمانهم بالدين المسيحي^(١)... أي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والاخلاص لجميع الناس ، ويتنازعون مع ذلك بخبث شديد ويظهرون أشد أنواع الحقد ، حيث يظهر إيمانهم في عدائهم لا في ممارستهم للفضيلة"^(٢). والفضيلة يعرفها سبينوزا من حيث علاقتها بالإنسان بأنها " هي عين ماهيته أو طبيعته ، بوصفه قادراً على القيام ببعض الأشياء التي يمكن معرفتها بقوانين طبيعته وحدها"^(٣) ، فالمؤمنون بحق هم " أولئك الذين يدعون الناس من حولهم إلى العدل والاحسان بقدر ما تسمح لهم عقولهم وقدراتهم "^(٤). فطالما أن الفضيلة ترتبط بالفهم ، فمن الطبيعي أن يزداد المرء اقترباً منها كلما اتسع نطاق فهمه للأشياء ، حتى إذا ما توصل إلى تأمل النظام الكلي للأشياء في ضرورته الشاملة حقق بذلك أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من الفضائل ، وأمكنه التغلب تماماً على انفعالاته عن طريق ربطها بالضرورة الكونية الشاملة^(٥). ومن هنا فإن أخلاق سبينوزا أخلاق يونانية في جوهرها أكثر منها مسيحية ، لأنه يعتبر محاولة الفهم الأساس الأول والأوحد للفضيلة . وهو بذلك يتفق مع "سقراط" تماماً الذي ذهب إلى أن الفضيلة هي المعرفة^(٦).

إن المشكل الذي يتناوله سبينوزا بالدرجة الأولى لا يتعلق ببداية المعرفة ، مثلما الشأن بالنسبة إلى ديكارت مثلاً وإنما هو يتعلق بصحة النفس وسعادتها القصوى ، فالسؤال الذي كان سبينوزا يطرحه على نفسه هو ليس " ماذا يجب أن أفعل؟ " وإنما : " ماذا يجب أن أفعل كي أفوز بالسعادة ؟ "^(٧).

إن سعادة الحكيم وسكينته برأي سبينوزا ليست مكافأة لفضيلته بل هي الفضيلة نفسها ، يتحلى بها ليس بسبب قدرته على التحكم في نزواته وشهواته وإنما على العكس من ذلك

١ . يشمل سبينوزا المثال ذاته على ديانات أخرى كاليهودية والاسلامية وحتى الوثنية .

٢ . سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص ١٠٩ .

٣ . سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢٣٤ .

٤ . سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص ٣٥٣ .

٥ . فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢١٨-٢١٩ .

٦ . جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤٢ .

٧ . سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ص ١٩ (ضمن التقديم) .

بسبب اكتسابه لها تفقد شهوات العالم المحدود سلطانها عليه^(١) فليست الغبطة جزء الفضيلة ، بل هي الفضيلة عينها ، ولا ينشرح صدرنا لكوننا نكبح شهواتنا ، بل على العكس ، إن انشراحنا هو ما يسمح بكبح شهواتنا^(٢) . من هنا فإن الأخلاق عند سبينوزا - على حد قول دولوز - تقدم نفسها كنظرية للسلطة ، في مواجهة الأخلاق كنظرية للالتزامات^(٣) .

إذن السعادة الروحية التي تتمثل في الحب المتجه إلى الله ، ليست جزء الفضيلة بل الفضيلة ذاتها ، ونحن لا ننعم بها لأننا نتحكم في شهواتنا ، بل نحن نتحكم في شهواتنا لأننا ننعم بها^(٤) " فمن يدأب على التحكم في إنفعالاته وشهواته وفقاً لحب الحرية لا غير ، سيبدل قصارى جهده من أجل معرفة الفضائل وعللها ... ومن يسهر على احترام هذه القاعدة - وليس هذا بالأمر العسير - ويتدرب عليها سيصبح قادراً ، بلا شك ، في مدة قصيرة على توجيه أعماله وفقاً لما يأمر به العقل^(٥) " إذ " لا يتم الخلاص إلا لمن يطبقون هذه القاعدة في الحياة ، أي لمن يطيعون الله ، على حين يهلك من يعيشون تحت سيطرة اللذات . ولو لم يعتقد الناس بذلك اعتقاداً جازماً لما كان هناك ما يدعوهم إلى إثارة طاعة الله على السعي وراء اللذات^(٦) .

فالإنسان الحكيم من النادر أن يشعر بخواء الروح ، وكونه يكون واعياً بقيمته ووجود "الله" والأشياء ، ووجود ضرورة أبدية ، فإنه لا يفقد احساسه بوجوده أبداً ، ويشعر بالتوافق الروحي وثناء حياته الروحية^(٧) " وهكذا ندرك ما هي منزلة الحكيم ، وما مدى تفوقه على الجاهل الذي لا ينقاد إلا لشهواته ... الحكيم من حيث هو حكيم ، فإن الاضطراب لا يعرف إلى قلبه منفذاً بل هو - نظراً إلى ما يتصف به ، وفق ضرورة أزلية

١. جوازيار رويس : روح الفلسفة الحديثة ، ص ١٤٦ .

٢. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٥٠ .

3 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 104 .

٤. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

٥. سبينوزا : المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

٦. سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص ٣٥١ .

٧. جوازيار رويس : روح الفلسفة الحديثة ، ص ١٤٦ .

محدودة ، من وعي بذاته وبالإله وبالأشياء - لا يكف عن الوجود أبداً وينعم بانبساط الروح الحقيقي^(١).

فالحرية الحققة هي سيطرة العقل وفاعليته وهي التخلص من أغلال العواطف العمياء التي لا تسترشد بهدى العقل . ولن يكون الإنسان حراً إلا بقدر ما هو عالم عاقل . ولكي تكون انساناً كاملاً لا ينبغي أن تتحرر من قيود المجتمع ونظامه ، لأن سمو الإنسان هو في التحرر من فردية الغرائز وتحكمها ، وبهذا وحده يكمل الإنسان الحكيم^(٢) . فالإنسان الأخلاقي الذي ينشده سبينوزا هو الذي يحرر نفسه من تلك الغرائز ويرتفع عما يمكن أن ينتج عنها من رغبات ، فليست العظمة أن تحكم الآخرين ، وإنما في أن تحكم نفسك^(٣). لذا كان تحقيق السعادة مرهوناً بمدى تحرر الإنسان من الأوهام الأخلاقية الفضة ، ودفعه الى فهم انفعالاته وضبطها وتنظيمها ، وتعلل عللها وأسبابها ، حيث يصير انتاج المعرفة عن علل الانفعالات وأسبابها يمكننا من امتلاك قدرة على الفعل من أجل التحرر ، بهدف تحقيق السعادة^(٤).

وهكذا نجد سبينوزا متفقاً مع سقراط ، في أن الفضيلة علم والرذيلة جهل ، لكن سبينوزا يعرف الفكرة على طريقته الخاصة ، إذ للمعرفة أنواع ثلاثة هي "الظن والاعتقاد والمعرفة الواضحة". الأولى أصل الانفعالات المخالفة للعقل . والثانية أصل الرغبات الطيبة والثالثة أصل الحب الحقيقي . ليصحح سبينوزا قول سقراط بحيث يصبح : " الرذيلة معرفة باطلة أو ظن معرض للخطأ ، والفضيلة معرفة صحيحة"^(٥) ، وفلسفة سبينوزا ، في جانبها العملي ، إنما ترفض كل ما يفصل المرء عن الحياة ، فالقيم التي تنقلب ضد الحياة في نظره هي قيم متعالية سببها الوهم^(٦). " ومن المفيد في الحياة ، قبل كل شيء ، أن يستكمل المرء ذهنه أو عقله قدر الإمكان ، ففي ذلك فقط تتمثل سعادة الإنسان القصوى

١. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٥١ .

٢. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤٣ .

٣. زكي نجيب محمود : م (فلسفة سبينوزا -٢-) ، ص ٢٠ .

٤. بلال مراوي : بحث (الرغبة والنسق الايثولوجي في فلسفة سبينوزا) ، ص ١٥ .

٥. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص ٢١٨ .

وغبطته ، إذ لا تعدو أن تكون الغبطة إلا رضى النفس الذي ينشأ عن معرفة الله معرفة حدسية^(١).

فبينما كان ديكارت يبحث عن الحق بعقله ، وبسكال عن السعادة والخلاص بقلبه ، كان سبينوزا يبحث عن كل ذلك بعقله ، بل كان يبحث عن الحق لغاية السعادة والخلاص^(٢) إذ " لا تعدو معرفة الخير والشر إلا أن تكون انفعال الفرح أو الحزن^(٣) ، من حيث وعينا به "^(٤) فكل ما نتخيل إنه يقودنا إلى الفرح فإننا نجد في الحصول عليه ، وكل ما نتخيل إنه مناقض له أو يقودنا إلى الحزن فإننا نجد في إقصائه أو تحطيمه"^(٥). فالشر لا يوجد عند سبينوزا إلا من حيث الأفكار غير الملائمة ، وفي مشاعر الحزن التي تنجم عنها كالكرهية والغضب وماشابه^(٦).

من هنا قامت نظرية الرغبة لدى سبينوزا على التمييز بين (الرغبة والارادة) ، فهو يعرف الرغبة بوصفها "ميل النفس إلى ما تراه حسناً " والارادة بوصفها القدرة على الاثبات أو النفي ، وبوصفها القرار الداخلي الذي يؤكد أن موضوع رغباتنا إنما هو حسن^(٧) " فلقد غدا من الثابت إذاً أننا لا نسعى إلى شيء ولا نريده ولا نشتهي ولا نرغب فيه لكوننا نعتقده خيراً ، بل نحن ، على العكس من ذلك ، نعتبره خيراً لكوننا نسعى إليه ونريده ونشتهي ونرغب فيه "^(٨) وبالتالي فإن أساس الفضيلة ليس إلا مجهود الإنسان في

١. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٣٠٢-٣٠٣ .

٢. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص ١٨ (ضمن التقديم) .

٣. يقول سبينوزا عن الندم بأنه : " حزن مصحوب بفكرة شيء نعتقد أننا قمنا به بأمر أنفسنا " (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢١٩).

٤. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ٢٤٠ .

٥. المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

6 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 36 .

٧. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص ٦١ .

٨. سبينوزا : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

الاحتفاظ ببقائه ، وسعادة الإنسان تتألف من قوة الإنسان على حماية وجوده^(١) ، وقوة الإنسان جزء من قوة الله ، أو الطبيعة اللا نهائية^(٢).

والرجل الحر لا يفكر فيما هو أدنى من الموت ، وحكمته هي تأمل لا في الموت وإنما في الحياة ، إن الجهل وحده هو الذي يجعلنا نظن أننا يمكننا أن نعدل المستقبل ، فما سيكون سيكون والمستقبل ثابت ثباتاً لا تعديل فيه شأنه في ذلك شأن الماضي . ذلك هو السبب في أننا ندين الرجاء والخوف : فكلاهما يستند إلى النظر إلى المستقبل على إنه غير يقيني ، وهما من ثم ينبعان من افتقار إلى الحكمة^(٣).

لكن " من تخيل هلاك ما يكره كان مسروراً"^(٤). لذا فإن السعادة تتم بما يجلبه الإنسان لنفسه حتى يتمكن من العيش الرغيد ويجب على الإنسان أن يعرف أن هناك نقطة بداية في كل حياة ، فالرجوع الى الماضي الإنساني الذي عاشه ، ومهما كان نمط الحياة فإنه يجلب الشقاء النفسي الذي يجعل الفرد بعيداً عن متناول هدفه ، لذلك يجب أن يكون السعي وراء الحياة مليئاً بالمثابرة وموجهاً نحو الأهداف السامية^(٥).

والكمال عند سبينوزا هي القوة العقلية المتزنة ، لذا كلما درج الإنسان صاعداً في سبيل القوة العقلية كان أقرب إلى الكمال ، وكان بالتالي سعيداً مطمئن النفس^(٦). وكما لا يطلب "الله" مقابلاً عن حبه لأشياء ، كذلك فمن وصل هذه المرحلة من الكمال لا يطلب مقابلاً لحبه ، فلا يسعى الإنسان الى الفضيلة طمعاً في شيء أو خوفاً من شيء ، بل من أجل الفضيلة ذاتها ولذاتها ، وتبقى سعادة الإنسان القسوى هي تحقيق الذات الإنسانية عن طريق اتحاد الإنسان "بالله" أو الحقيقة^(٧).

١. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص ١٤١ .

2 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 98 .

٣. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

٤. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص ١٦٨ .

٥. محمد شحادة وآخر : بحث (اشكالية السعادة عند سبينوزا) ، ص ٤٥٨ .

٦. زكي نجيب محمود : م (فلسفة سبينوزا -٢-) ، ص ١٩ .

٧. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص ١٢٣ .

تلك السعادة هي التي وصفها سبينوزا بانبساط الروح الحقيقي ، والتي يقول عنها : " ولئن بدا السبيل الذي أشرت إليه وعر جداً ، فإنه لا يتعذر مع ذلك الاهتداء إليه ، إذ لا شك أن كل ما يندر وجوده يصعب بلوغه ، إذ هل يعقل ، لو كان الخلاص في متناولنا وبوسعنا الفوز به دونما عناء شديد ، ألا يعبأ به أحد تقريباً ؟ لكن كل ما يكون نفيساً يكون صعب المنال بقدر ما يكون نادراً " (١) ، وقد عبر سبينوزا عن تلك الفكرة بقوله "الإنسان المطيع حقاً هو صاحب الإيمان الحق ، أي ذلك الذي يكون الخلاص ثمرة له" (٢). وما الخلاص في رأي سبينوزا إلا فوزاً مقترناً بالفضيلة مع السعادة .

استنتاجات :

أولاً : من خلال قراءتنا لسبينوزا رأينا أن هناك وحدة جوهرية في مشروعه الأخلاقي ظهر مع رسالته عن السعادة ، وتطور في رسالته عن اصلاح العقل ، لتكتمل في منهجية كتابه علم الأخلاق ، وهذا التوازن ما بين (الفكرة والواقع) هو الذي أدى أن تكون " غاية النظر هي العمل " ، وأن يكون اتجاهه الفلسفي الأساسي أخلاقي كما هو الحال عن الرواقيين .

ثانياً : إن المنهج العقلاني في المجال الأخلاقي (العملي) عند سبينوزا ، أدى به إلى ادراج موضوعات ميتافيزيقية في ذلك المجال ، فهو يرفض تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية ومجال المعرفة العملية ، فالأول يتمثل في الميتافيزيقا ، أما الثاني فميدانه هو السلوك الإنساني .

ثالثاً : إن النظرة إلى الإنسان وانفعالاته على أنها جزء لا يتجزأ من الطبيعة ، هي التي حدث بسبينوزا أن يصور لنا بأن (اللذة والألم) ، ومن بعدهما (الرغبة) ، هي عين ماهية الإنسان ، ولما كانت الرغبة تعني حفظ النوع ، فإن كل عمل يؤدي

١. سبينوزا ، علم الأخلاق ، ص ٣٥١-٣٥٢ .

٢. سبينوزا : رسالة لاهوتية وسياسية ، ص ٣٤٨ .

إلى المحافظة على الإنسان ومن ثم منفعته يعد خيراً ، والإنسان لن يبلغ غايته ولن يتحقق وجوده في حياة فاضلة إلا بالعيش وفق قوانين طبيعته الشخصية.

رابعاً : إن سعي الإنسان إلى التغلب على انفعالاته عند سبينوزا يؤدي هو ذاته إلى تأكيد المعاني الاجتماعية في نفسه . ومن هنا تحديداً كان (الكوناتوس) - بوصفه الجهد الذي يسعى كل كائن للاستمرار في كيانه - مُفسراً لكل مظاهر السلوك الإنساني ، لكونه هو ما يُظهر قدرة الفرد في أن يثبت ذاته ، ويمثل أيضاً مبدأً للفاعلية ، لذا كان كل ما يعوق فعل الإنسان شراً بعينه . وهذا ما فسر لسبينوزا أن الانفعالات هي أساس الشقاق بين الناس.

خامساً : إن القول (بأن الإنسان لا يقف بمعزل عن الطبيعة وقوانينها) يمثل أهم طابع لنظرية سبينوزا عن الإنسان وحياته العملية ، فالإنسان محكوم بالجبرية كونه " لا يتحكم في أفعاله بحرية " ، ومن المحال أن يكون الإنسان حراً ، وأن تكون له مشيئة تسلك من تلقاء ذاتها دون أن يتحكم في سلوكها سبب خارجي . فكل شيء يحدث هو تجلٍ لطبيعة " الله " التي لا يمكن فهمها ، وبالتالي من المُحال منطقياً أن تكون الأحداث غير ما هي عليه . فذلك هو النظام القائم على مبدأ الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة .

سادساً : حياتنا العملية تابعة لحياتنا العقلية وتختلف باختلافها ، وفي ذلك تناقض واضح وقع فيه سبينوزا حينما أشار إلى أن الحياة العاطفية والشعورية هي الأولى ، وأن عليها تتأسس الحياة العقلية كتصور واضح متميز للذات والعالم وكتأمل . ذلك أن فهم سبينوزا للإنسان لا يتمثل في تعويض حياة الوجدان والعاطفة بالحياة العقلية ، بقدر ما يتمثل في تنضير الحياة العقلية فوق حياة الوجدان والعاطفة . بل في تحويل الحياة العاطفية إلى نطاق العقل . (مع أن ذلك يعد سبقاً لسبينوزا على هيجل في الدعوة الى مثالية واقعية مفادها : كل ما هو عقلي واقعي ، وبالتالي مشروعية اخضاع الواقع لمنطق الفكر).

سابعاً : أن يكون للعلم ذاته طابع عملي لا تأملي ، وأن لا يكون هنالك وجود لأخلاق مجردة منفصلة عن المجرى العام لعلم البشر . لم يمنعا أن تكون نظرة سبينوزا للإنسان وحياته العملية نظرة ميتافيزيقية في فلسفته ، فالأخلاق تسير مع فكرة ما وراء الطبيعة ، ما دام العقل هو الذي يضع القانون الذي تنتظم فيها رغبات الإنسان المتنافرة ، كي يستطيع أن يسلك سلوكاً يتفق مع ما يمليه عليه العقل ، فسبينوزا رفض تماماً تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية الخالصة وهو (الميتافيزيقا) ومجال المعرفة العملية وهو (الأخلاق) . وهنا يقع سبينوزا - مرة أخرى - في المثالية ، رغم مناداته بواقعية الإنسان ، ويجدوى حياته العملية .

ثامناً : السؤال المتضمن في الذاتية ، والسابق لقواعد الأخلاق العملية في صيغتها الكانطية ، أي ماذا ينبغي أن أفعل كي أفوز بالسعادة ، أشار فيه سبينوزا إلى أنه لا بد من التحرر أولاً من فردية الغرائز وتحكمها ، فالفضيلة علم والرذيلة جهل . ذلك هو النسق السقراطي السبينوزي (في تناغم المعرفة مع الفضيلة) ، والذي مؤداه إن الجهل وحده هو الذي يجعلنا أن نظن أننا يمكن أن نعدّل المستقبل . لذا كان من المفترض أن نبحث عن الحق بالعقل لتحقيق غاية السعادة والخلاص ، والإنسان المطيع والفاضل حقاً هو صاحب الايمان الحق ، أي ذلك الذي يكون الخلاص ثمرة له .

The human and practical life of Spinoza

Asst.Prof.Dr.Ziad Kamal Mustafa

Key words : Human , Desire , Nature , Practical life , Blessedness.

Abstract

Spinoza's human nature is inseparable from the anthropology of social life in his philosophy, Nor about his possible ranks of knowledge, Our practical life belongs to our mental life. But man himself is a one of Conditions "God" or nature as it is all, And it is governed in life by emotional elements, most notably (desire) As a direct expression of a person's tendency to preserve his existence, being aware of this tendency, Therefore, it was necessary for the person to strive to overcome his emotions in order for this to confirm the social meanings in himself, That is the basis of virtue.

True happiness, which is the desired goal of human life, does not lie in the pleasure of the body and the tendency to save survival, But in doing good. The "Conatus" is associated with this tendency, The power of being expressed necessarily within all individual beings represents the Infinity power of "God". If the wisdom of a free man is to meditate not in death but in life, Salvation will only occur for those who apply this rule in life: That is, for those who obey "God", Whereas those who live under the pleasure of perishing perish" And who imagined the destruction of what he hated was happy". This is the case of a person at Spinoza, and This is the nature of the good and practical life he must live.